

چو کائنات

للكاتب العظيم

أنا تول فرانس

تقریب

عبدالمعصی

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

مطبعة عطايا بابا خان بمصر

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_191045

UNIVERSAL
LIBRARY

OUP—860—5-8-74—10,000.

OSMANIA UNIVERSITY LIBRARY

Call No.

۸۳۷

Accession No.

A 697

Author

ف. ب. ج.

فرانس، زنا تولد

Title

یلو کاسٹ

This book should be returned on or before the date last marked below.

چو گاہک

للكاتب العظيم

أنا تول فرانس

تقریب

عبد الباقی

الطبعة الأولى — يناير ١٩٣٢

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

مطبعة عطايا بابا لکھنؤ

تقدمة

أناتول فرانس^(١)

فى حى «كى ملاكى» بمدينه پارى، ولد أناتول فرانس فى السادس عشر من إبريل سنة ١٨٤٤. وأسمه الحقيقى جاك أناتول تيبو. وأناتول ليس من ذؤابة الأشراف. فأبوه كان بائع كتب. وكانت مكتبته المملوءة بالكتب الأدبية والصور الفنية ملتقى كثير من الأدباء والشعراء فكان أناتول يجلس منصتاً لأقوالهم ومجادلاتهم يشغف زائد. وقد اشتغل ببيع الكتب فى دكان أبيه كما كان أميل زولا يبيعها فى بدء حياته عند «هاشيت». والتحق بجامعة ستانسيلاس بپارى وكان لا ينفك يدرس الفن وتاريخ الأدب. وينهل من معين «دارون» و«سينسر» و«تين» و«رينان» ويؤازر فى تحرير بعض المجلات مثل «صياد التراجم» و«الجريدة المقفاة» وفى الرابعة والعشرين من سنه حياته ألف رسالة عن «الفردى فىنى»

وتردد أناتول على مجالس البارناسيين ، وتمشى مع آدابهم
وذوقهم الفنى . وأخذ يتجول فى القسم الواقع على ضفة السين
حيث يجذباعة الكتب التى يعشقها . وفى الثلاثين أخرج للناس
ديوان « القصائد المذهبة » فى سنة ١٨٧٣ ثم أتبعه بكتاب
« أعراس الكورتين » سنة ١٨٦٦

وأولع أناتول بفن القصص فأظهر للعالم قصته الأولى
« جوكاست » ووالى اصدار قصصه التى تجلت فيها قوة خياله
وروحه الناقدة الساخرة وأودعها ترجمته وروى حادثات نفسه
فى أعطاف كتبه . فهو قصاص ماهر ، وخبير فى علم النفس ،
ولا يوجد من عهد شاتوبريان رجل كان لكتباته من التأثير
ما كان لتآليف فرانس . فأخرج بلطازار وخطيئة سيلفستر
بونار وكتاب صاحبي وتاييس ومطهى الملكة ييدوك ، وآراء
جيروم كوانياز ، والزنبقة الحمراء ، وزنبيل الصنصاف ، وحزيرة
البطريق ، وثورة الملائكة ، والحياة أيام الزهر ، وحديقة أيقور ،
بيرسانت كلير ، ذردارة اللعب ، صدقة اللؤلؤ ، رغائب
جان سرفين ، بلتشصر ، المسيو برجرىه فى باريز ، يار
نوذير ، التاريخ الهزلى ، الحجر الأبيض ، قصص جان

تورنبروش ، النساء السبع ، والآلهة عطاش .
وقد نشر مؤلفات بعض الكتاب الفرنسيين كراسين
وشاتوبريان ولافوتتين وكتب عن جان دارك كتابا ضخما .
ويقول مسيو مشيل كوردای أنه عثر على آثار خطية لهذا
الكاتب لم تنشر بعد منها كتاب ما وراء الطبيعة وفي ظل الوردة .
وقد عثر أيضاً على عناوين كتب وقصص كان في عزمه تأليفها
ولكنها لم تتم بعد وهاك أسماءها : الله . الطبيعة . الحرب .
المستقبل . العفة . الدير . الحب والموت . محاورات عن
الشيخوخة . علم الفلك .

ويقول كوردای أن أناتول كان عازما على وضع رواية
أخرى بعنوان سيكلوب ..

نعود إلى حياة هذا الفيلسوف فقد تولى تحرير القسم الأدبي
في جريدة الطان الفرنسية . وفي ديسمبر سنة ١٨٩٤ وقف
موقفا مشهوداً مع زميله « زولا » الأديب والصحافي الفرنسي
الكبير في حادثة « كابتن الفريد دريفس » حيث تحدى زولا
القضاء في مقالته « انى أتهم » وكان أن قبض عليه . ولكن
الحق الصراح ما لبث أن ظهر فأطلق سراحه . وظهرت للعالم

قوة أناتول وزولا في تقدير الحقائق وصراحتهما
وظل مدة يعمل في مكتبة السنوات ثم انتخب عضوا في
الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦ م كان فرديناند دولسبس ثم
أنعم عليه بوسام اللجيون دونور

وزار فرانس انجلترا في سنة ١٩١٣ ويقال أنها كانت زيارة
سياسية وفي سنة ١٩١٤ تطوع بنفسه للخدمة العسكرية .

وفي سنة ١٩٢١ نال أناتول جائزة نوبل في الآداب ووهبها
لمسكوبي المجاعات في روسيا وبينما هو يستقبل عيد ميلاده
الأول بعد الثمانين في ١٣ أكتوبر سنة ١٩٢٤ الساعة ٢٦ر١١
صباحا لفظ النفس الأخير بعد أن ظل يومين فاقداً لرشده .
وقد استوفى من العمر قسطا مديدا مجيدا . وخلف مجدا أثيلا .

وكان في أيامه الأخيرة كثير الحديث يؤم منزله جماعات
من الأدباء فيتحدث إليهم بفكاهته وأدبه المستملح . وقد حدث
المسيو سيم بائع الكتب ومن أكبر أصدقائه المقربين قال :

إذا ما استيقظ في الصباح هرع إلى ملابسه فيتناول أقرب
رداء إليه فيرتديه وهكذا حتى ينتهي وقد يعثر في البدء على
چاكتته قبل قميصه فيرتديها تحت القميص وفي النهاية رداء من

الصوف فاذا مأخذك العجب من ذلك أجابك مشدوها من
عجبك : « وما وجه العجب . ألم أرتديها جميعا كما هو الواجب ؟
أنتي أشعر بالدفء الآن كما تريد أن أرتديها ! »

• وفلسفة أناطول مزيج من السخرية والرحمة فهو يحتقر
الإنسان . ولكنه يعطف عليه ويتألم لمصائبه وكانت أفكاره
كأفكار رينان إلا أنها تهذبت عن ذى بدء . وفي هؤلاء المرتابين
الساخرين بالحياة يقول فرانس :

لقد كان ثولير ساخطا على العواطف التي تجعل بني الإنسان
منغصين ، مبشرا بالحياة السعيدة وروح الموائسة .

وهو الذي كان يعتقد باللاشئ . وهو الطيب القلب الساخر
المرتاب بالحياة القاسى على الجهلة والأشرار .

وكذلك رينان الذى عاش دهره ينقى الأديان ويعمل
لتوحيدها . كان يعتقد بالله ويدين بالعلم وهو واثق من مستقبل
الإنسانية !

أجل . لقد كان مرتابونا مملوءين بقوة خالدة وحمية نارية . قضوا
أيامهم فى جهاد لفك الأغلال عن أيدي بني الإنسان فهم قديسون !
وكان له فى غالب الأشياء رأيان مختلفان . رأى لفريزته

وآخر لعقله . فغريزته طالبة للذات متنسمة ذرى المجد . متعطشة الى مناعم الحياة . والذين يعرفون فرانس يعرفون عنه ميله الى الجمال والفن . يحب كل شيء جميل من طعام شهى الى أزهار جميلة ومن حسناء لعوب الى أثر فنى جميل . حتى اشتهر بحبه لعصور الرومان واليونان لما فيها من جمال وفن ! وأنتك لترى ذلك جلياً في منزله الذى سماه « مغنى سعيد » حيث ملأه بالآثار الفنية الجميلة . وغرس في حديقته الأزهار

وأما رأيه الثانى فهو يعبر عن ضميره وما يحول فى خاطره من أن العالم أنسانية معذبة وأن فيها من حادثات المكاره والخسة والوحشية مايجب أن نعمل لنرجح كفة الخير على الشر .. وهنا ينتصر ذلك الرأى الذى ينغص عليه لذاته - على غريزته .

وكان فرانس منكراً للوحى قائلاً بدين الطبيعة وقد ساهم فى الاشتراكية والشيوعية . ووافق على مبادئهم بقلبه . ورأى فيها واسطة للتعديل والموازنة

وأنا تول فرانس يشك فى التاريخ ويقول أنه ليس علماً بل هو ناقص . أما المؤرخون فهم رواة أقاصيص زخرفات وأحاديث تناسب مع عقلية كاتبها . فالمؤرخ لا يستطيع أن

يذكر الحقيقة التاريخية كاملة غير ناقصة بل لابد أن يهذبها أو ينقص منها . فإذا الحقيقة تملينا على المؤرخ إرادته . فهي مشوبة بالخرافات والخطأ .

وهو يقر ما كس نوردو على قوله أن التاريخ ليس جديرا بالصفة العلية . وإن هو إلا مجموعة من الخرافات التي تعلق بذهن المؤرخين ويضيف عليها هؤلاء من بنات أفكارهم ماشاءوا وشاءت أهواؤهم . إذا فليس من فائدة من دراسة هذا التاريخ أو بالاحرى هذه السخافات والخرافات المجموعة في قالب قصصى ينظر إليها البعض كأنها حقائق لا غبار عليها فيقبلون عليها بغية الدرس والاعتماد عليها . فإذا جاءت حكومة من الحكومات وأرادت أن تحكمنا بنوع خاص من أنظمة الحكم وجهت نظرنا إلى جهة خاصة من التاريخ الذى تختاره هي ملائمتها ومبررا لتصرفاتها فيكون ذلك بمثابة خداع من تلك الحكومة أرادت به تبرير أعمالها .

وهب أننا كشفنا عن كتابات قديمة أثرية مدونة بها أقاصيص أخرى تاريخيه مخالفة فأن ذلك داع إلى أن ينبار صرح تلك الحقائق الأولى والتي سار على قوفها انكثيرون فقتلوا درساً

وتمحيصاً وذهبوا يملأون العالم بذكرها . ولكن تلك الكتابات الحديثة أضاعت معالم ما كتبه الأولون . وهكذا تبدل الحقائق وتتغير عقائد المؤرخين تبعاً لذلك - فبعد أن كان المؤرخ يؤكد شيئاً إذا به ينكره اليوم .

فالحقيقة التاريخية ممتنع الوقوف عليها وليس في وسع المؤرخ أن يمحصرها في كتاباته . ومن شرائط العلم أن يحدثنا عما يكون في أحوال خاصة : ولكن التاريخ تنقصه الوسائل التي تدرك الحاضر واستدكار صورته . بل أن التاريخ لعاجز عن التنبؤ بحادثة واحدة .

وننتهى من ذلك إلى أن التاريخ هو مجموعة من الرسائل والمقالات ترمى إلى الحظ على فضيلة من الفضائل أو اتباع نظام خاص من أنظمة الحكم . وقد يكون مجموعة قصص تشيد بذكرى بطل من الأبطال لا نعلم له من أثر إلا تلك الأقاصيص . فهو محكوم عليه بأن يعيش في أودية الفوضى الحالكة لا تنيرها أنوار الحق .

هذا ما يراه أنا تول وفي كتابه آراء جيروم كوانيار تلس هذا المنحى من فلسفته حيث يشرح الأستاذ كوانيار ذلك ويذكر قصة يستدل بها وهي :

قال الأستاذ كوانيار : وإنى لذا كر لك ما قصه على
الآب بلائشيه من أن (زمير) أمير الفرس الصغير عند ما ولى
عرش فارس استدعى علماء مملكته وقال لهم أن مؤدبه قال له إن
الملك العادل القليل الخطأ هو من استنار بأعمال الأقدمين .
لذا فهو يريد أن يؤلفوا تاريخاً عاماً لجميع الأمم حتى يطالعه .
ولكن حذار أن ينقصوه حرفاً . . فانصرفوا طائعين وشرعوا
فى التأليف حتى مضت عشرون سنة مثلوا بعدها بين يدى هذا
الملك ومعهم اثنا عشر جملاً يحمل كل جمل منها خمسمائة مجلد
ضخم . . . وتقدم شيخهم فسجد بين يدى مليكه وقال : يامولاي
يتشرف خدمك علماء الدولة بأن يقدموا لجلالتكم التاريخ العام
الذى أمرتم به . وهو يقع فى ستة آلاف مجلد . فلم تترك ما
أمكننا جمعه من عادات وتقلبات الأمم ومواقعها إلى غير ذلك
من أقدم الأزمنة إلى الآن . ومقدمة هذا التاريخ العام تقع فى
خمسمائة مجلد ينوء بحملها جمل والتعليقات والشروح أيضاً فى
فى خمسمائة أخرى يحملها جمل آخر .

فأجاب الملك : « إنى لشاكر لكم ما بذلتموه من مجهود
وعناء فى سبيل تنفيذ رغبتى . إلا أنكم تروتنى مشغولاً بشؤون

الرعية وسياسة المملكة . وقد تقدم سنى فليس لدى من الوقت ما أقرأ فيه هذه الستة آلاف مجلد وأنظر فى شؤون دولتى . فاحفظوا هذه المجلدات فى محل المحفوظات واجتهدوا فى عمل ملخص له كى أستطيع أن أطلعه .

وانصرف العلماء يكدون ويؤلفون . وبعد عشرين عاما أخرى جاءوا إلى الملك ومعهم ثلاثة جمال تحمل ألفا وخمسمائة مجلد . وتقدم شيخهم وكان قد أخذ منه التعب والهرم كل ما أخذ فقال بصوته الضعيف الفانى : « يا مولائى لقد اختصرنا التاريخ كما أردت ولم تترك شيئا يستحق العناية ، فأجاب الملك : « يا علماء فارس . لقد هرمت واشتعل الشيب برأسى فكيف تطمعون منى فى مطالعة مجلداتكم الضخمة ؟ هلبوا فاختصروه ولا تطيلوا المكث . ، فأب العلماء واشتغلوا بالاختصار حتى انصرفت عشرة أعوام أخرى جاءوا بعدها ومعهم فيل يحمل خمسمائة كتاب . وتقدم شيخهم فقال : « لقد اختصرناه يا مولائى كثيرا ، فقال الملك : « أتظنون أن اختصاركم هذا كاف لأن أقرأه وأنا فى آخر أيامى . هلبوا اختصروه كثيرا حتى أقرأه قبل الموت ، وانصرفت خمسة أعوام أخرى جاء فى نهايتها شيخهم وهو يتوكأ

على عصاه . وقد أنهكه تعب تأليف خمسين عاما فتجعد وجهه
وتقوس ظهره حتى صار على أبواب الأبدية . جاء هذا الشيخ
الفانى ومعه حمار صغير يحمل مؤلفا ضخما ينوء تحت ثقله .
فقال له الحارس : « أسرع . فان الملك فى النزاع الأخير . »

وحينما رآه الملك قال بأسف : « سأقضى قبل أن أعرف تاريخ
هذا العالم . » فقال شيخ العلماء وكان هو الآخر على أبواب الأبدية :
« مولاي سأقول لك تاريخ هذا العالم فى ثلاث كلمات : لقد
ولدوا وتألّموا وماتوا !! »

وبذلك عرف ملك فارس تاريخ العالم منذ القدم إلى الآن
فى اللحظة الأخيرة من حياته !

وبعد . فان فلسفة أناتول فرانس موضع درس عميق دقيق
فهو يعتمد على الحقائق التى يقررها هو . وإن كان التهمك يغلب
على كتاباته والسخرية تبدو فى سطورها . إلا أنها سخرية
ممزوجة بالعطف على الناس وطلب العذر لهم لأنهم ضعفاء .

اما الاعتقاد الدينى وتأثيره على الأخلاق فهو يرى أن
الأفكار الدينية لا تصلح الأخلاق . ويستشهد على ذلك بتاريخ

الشعوب المسيحية وهى سلسلة مذابح واضطهادات . وأن كنهه
العصبة الكاثوليكية كانوا متورعين ولكنهم كانوا أيضا قساة
الأكباد . وكذلك الباباوات الذين لطخوا صفحات تاريخهم
بالدم .. فكيف إذا تطمع فى أن تؤثر الأفكار الدينية على
أخلاقنا ونحن لسنا أشد ورعا من أبناء الأديرة .. وهنا تثار
نفسه فيحمل على البشر بأنهم حيوانات شريرة وأنهم يظلمون
أشرا ما دام فى عروق تنبض ... ولكنه لا يلبث أن
يعطف عليهم ويعذرهم لأنهم ضعفاء ..

وقد قال يوما ، لا تدعون كهنا مزعجا إلى فراش احتضارى
بل ادعوا لى امرأة حسناء وأحب أن أيدى جميلة تغمض عيوني
عند الرقاد الأخير ، .

... وسواء كانت عبقرية أنا تول نائرة غاضبة . أم ساخرة
هازئة . فلقد غمرت حياتنا بالضوء وأنارت الظلمات المحيطة بنا
وبددت الشكوك والأوهام . وقد قال الأستاذ لكونت رئيس
جمعية رجال الأدب أن فرانس مات عن مجد كامل وفلسفة
عظيمة هى زبدة أفكار حقبة عديده ، وخلاصة فنون أعصر
مديدة . .

چو کا ست

أول ما كتب

الأستاذ فرانس

في فن القصص

فى احدى لىالى يوليو القائظة وقد لبست السماء حلتها الزرقاء
وتوسطتها بضع سحب بيضاء.

فى حديقة المنزل الخشبى الصغير الذى يملكه المسير فيلير
دى سيساك ، جلس رينيه لونجمار الجراح المساعد فى الجيش
يتحدث إلى ابنة صاحب الدار ، وهى هيلين ، فتاة غداء ، رشيقة
القوام ، غضة الاهداب ، رقيقة النفس ، عذبة الحديث

جلست هاته الغادة الصغيرة تنصت لأحاديث الطبيب
الشاب . وكان أمامهما على بعد كبير نهر السين العظيم ، الذى
ينعطف إلى الشمال بين شاطئين ذوى زرقه باهتة . وفى الفضاء
الشاسع كانت تحتفى نواقيس الكنائس العالية وسقوف البنايات
الشامخة تلك هى بارى . وكانت الأنوار المتساقطة على قبة
الانفاليد الذهبية تكون منها أشعة وهاجة تأخذ بالبصر . وإذا
رأت الفتاة محدثها يضع بعض الضفادع فى جيوبه صاحت به

— ما هذا يا مسير لونجمار ، أتضع الضفادع فى جيوبك ؟

ولكن هذا خارج عن الذوق السليم

— فى داخل غرقى ، يا آنسة ، قد ثبت واحدة على لوح من الخشب . وغطيتها ثم اتى أحرکها بملقطى الصغير

— ولكن هذا مفزع ! انها تتألم !

— انها تتألم قليلا فى الشتاء وكثيراً فى الصيف . إذا كان هذا الغطاء محمى من الداخل لوجب أن يكون الألم مضاعفا ولسكنت حركات القلب

— وماذا تبغى من إيذائك الحيوانات المسكينة ؟

— لأضع أساس نظرتى الاستقرائية فى الألم . وسأثبت أن الستوئيسيان^(١) لا يفقهون ما يقولون وأن زينو^(٢) كان معتوها . ألا تعرفين زينو أيتها الآنسة ؟ لا تعرفينه البتة . . لقد كذب وجود الشعور . ستعرفين من هم الستوئيسيان عند ما أقول لك أنهم بلهاء ثبتت عندهم نظرية خطأ عن الألم وحلوله تحليلاً مشوها لا طعم له . ولو أن أحد هؤلاء المعتوهين كان بدلا من هذه الضفدعة تحت ملقطى . إذاً لعرف أنهم كانوا

(١) الستوئيسيان Stotcien مذهب غير للكثيرين بالدمر

(٢) Zenon أحد فلاسفة أثينا وصاحب هذا المذهب (٣٤٢ - ٢٧٠ ق.م)

خيالى العقول حينما كذبوا حدوث الألم . ثم انه من المفيد لهاته
الحيوانات أن تتعود الألم .

— أتمرح ؟ وفى أى شىء يمكن أن يفيد الألم ؟

— انه من الضروريات يا أنسة . هذا هو حامى الكائنات .
ولا ضرب لك مثلاً هذا اللهب الذى لو لم يسبب لنا من الأذى
الأول إشعاراً بالخطر لحرقنا حتى العظام دون ملاحظة .
نظر الشاب إلى محدثه وأضاف :

— وهذا هو موضع الجمال فى الألم . لقد قال ريشيه « أن
العبقرية والألم مترادفان . فأن أذكى الناس هم أكثرهم قابلية للألم
— بدهى أنك تألم أكثر من أى شخص آخر . وسأطلب
إليك بالحاح أن تبثنى آلامك . على ما فى طلبى هذا من طيش .
— لقد أفضيت إليك بها يا أنسة . أن زينو كان أبلها . إذا
تألمت كثيراً . فأننى سأشكو وأصبح . أما أنت ، فبصفتك ذات
شعور حساس وأعصاب رقيقة . فستلجئين إلى آلة موسيقية ذات
نغمات عذبة رنانة لها أثرها فى النفس . تعزفين على أوتارها الممانية
أنفيس وأمتع القطع

إن هذا معناه فى الفرنسيه أنى سأصير تعسة . أنك لا تطاق

ومن الصعب أن يعرف الإنسان ما إذا كنت جادا في أقوالك
التي تبدو من الغرابة بدرجة أن القليل الذي فهمته يجعلني في
حيرة تامة . ولكن .. دع هذا المزاح وكن عاقلا مرة واحدة في
حياتك إذا امكنك ، ثم قل لي : أحقا أنك ستبرحنا وستذهب
بعيدا ؟

— أجل يا آنسة . إلى « فال دى جراس » . رحيل ليس له
من نهاية وقد اخترت أن أتجرد من صبغتي الرسمية وألتحق
كطالب في كوشين شين . ولقد قررت ذلك بعد تفكير عميق ..
أنك تبسمين يا آنسة ؟ أتظنني جذابا ؟ . ولكن أصغى إلى .
سأهرب أولا من الجمالين وخادמות الفنادق وصيانيها وتجار
الملابس وغير هؤلاء من أعدائي الذين ينغصون على سعادتي
بخدماتهم . فلن أرى قط هاته الابتسامات التي تعلو وجوه خدم
المتديات . هلا لاحظت يا آنسة أن خدم المتديات يحملون
عقلا راجحا ؟ أنها ملاحظة جديدة بالذكر . ولكن لا ضرورة .
لأن أذكرك ما يخطر لي من الملاحظات .. لن أرى بعد شارع
سان ميشيل .. وسأجد في شغاي بعض آثار عظمية تساعدني
على إنهاء دراستي عن تكوين الأسنان في الجنس الأصفر

وأخيرا ، أفقد هذه الحياة التى تدب فى عروقى . وأذبل كالليمونة
فى أياها الأخريرة . تلك الحياة التى تدفعنى بشغف لأن ألم بما
يحيط بى .. قولى إذا أن كل هذا يجعل رحلتى جميلة .

نحلت الفتاة فى الشاب بعينها الكبيرتين فى هدوء .
وارتسمت على شفتيها علامات الحزن والقلق .

أن عيناها اللتان تشعان شكا وقلقا ، قد اتخذتا منظر الجلود
الممزوج بالحب واستقام أنفها وغارخداها قليلا .. فكأن
وجهها ، وقد شحب لونه يقول للسيدات : أن هذه الفتاة قد
فقدت حياتها .

وكان فيها الكبير فى شىء من النعومة يدل على الرقة
والسهولة . عاد لونها إلى أقصوصاته المسلية .

— لا يا آنسة . يجب أن أعترف لك أنتى فى رحلى عن
فرنسا ساهرب من أسكافى . اتى اصبحت لا أطيق سماع
صوته الخشن .

وهنا سألته مرة أخرى عما إذا كان سيرحل حقيقة . فغابت
الابتسامة التى كانت تعلو فيه وقال :

— سأسافر باكر فى قطار السابعة والخامسة والخمسين صباحا

وستقلني الباخرة في طولون في السادس والعشرين إلى شاطئ
ماجنتا

وهنا طرق أذنه صوت كرات العاج التي تُكر فوق طاولة
البليارد في المنزل الصغير . وسمع صوتاً يقول بلهجة التأكيد :
— سبعة إلى أربعة عشر !

فالتقى الشاب نظرة سريعة على الباب الزجاجي الذي يؤدي
إلى اللاعبين . وقطب حاجبيه وقال عبارات الوداع بخشونة
وظهرت على وجهه علامات الضيق وأدبر مسرعاً وقد خنقته
العبرات

تبعته الفتاة ظله بلواحظها برهة . وهو يسير تحت أشجار
الخطمي . ثم نهضت وعدت حتى الحاجز الحديدي . ووضعت
منديلها على فمها لتمتع صرخة كانت ستدوي في هذا السكون لو
أنها أطلقت لنفسها العنان . . وبسطت ذراعيها ونادت بصوت
مخنوق :

— رينيه !

ولكنها هوت بذراعيها . فقد جاءت متأخرة ولم يسمعها
الشاب . وكانت تعباً فلم تستطع الوقوف . واضطجعت إلى

عمود من حديد وقد أصبحت في حالة يرثى لها . دوى صوت
اللاعب من القصر :

• — هيلين ! أين المادير (١)

هذا هو مسيو فيليردى سيساك الذى ينادى ابنته . أنتصب
بقامته القصيرة أمام اللوحة التى ثبتت عليها أرقام اللاعبين . يقرع
كرة البليارد برشاقة . وكانت عيناه تحتفیان تحت حاجبين
كثيفين . وهياته تدل على أنه خسر الدور
قال لمضيفه :

— أنتى أقدم لك يامسيو هافيلان ماديرى الذى تحضره ابنتى
أنتى رجل بطيرى كى قديم . أما أنت فبصفتك من أهل الجزائر
فلست أشك فى أنك ذا خبرة بأنواع الأنبذة عامة وماديرى
خاصة أرجو أن تذوق هذا

أدار مسيو هافيلان بصره إلى هيلين وتناول بهدوء القدح
الذى قدمته له لقد كان هذا عملاقا ذا أسنان طويلة واقدام

(١) هو نوع من التبيد للمعق فى جزيرة ماديرا البورتغالية على المحيط
الاطلنطى

ضخمة . مشرب بالحمرة أصلعا . يرتدى حلة أنيقة . يرسل طرف
منظاره على منكبیه .

أختفت هيلين بعد أن تفرست في أيها شيء من القلق .
وقد اعتذرت عن حضور الغداء لأنها تشعر بانحراف . وفي
غرفة الطعام المزخرفة كأنها مقهى من مقاهى الشوارع .
جلس مسيو فيلير دى سيسياك يملاً الكوبات ويقطع الطعام
وقد صاح : ،، هيه إلى بالسكين لقطع السمك : ،، عندما رأى
هذا أمامه وغمد طرف السكين بعنف وعلق فوطته عاليا في
صدريته وأخذ يمتدح أنبذته بلهجة سيرا كيوزيه جافة . أما
البستاني الذى كان يخدم منذ سنة فهو يقوم بخدمة المائدة
بشكل مضحك وبيلاهة لقد كان هذا نوع من القرويين الذين
يلقون فى أذن سيده مقداراً كافياً من الأخبار المختلفة
دون أن يفهم هذا شيئاً منها .

أكل مسيو هافيلان ما شاءت معدته : وأصبح مُورداً من
الشراب وخلد إلى السكون . أما مسيو فيلير دى سيسياك فلما
كان قد أعلن أنه لن يتكلم فى الأعمال . فقد أخذ يستعرض
سيرته الأولى . وكان وكيلاً للأعمال وله زبائن من الملاك

والتجار ، وقد اكتسب مالا كثيرا فى وقت قصير ، لأنه - وهو
ما لم يذكره - كان يرى زمنا طويلا يخب فى نواحي شارع
« رامبوتو » بجذائنه الطويل ذى الكعوب المتأكلة . حينما كان
عملاؤه بعض القصايين وكانوا يجتمعون فى مكتبه المظلم فى فناء
منزل معتم مهمل .

وعلى بابه لوحة صغيرة كتب عليها اسمه فيليز والكلمات :
دى سيساك بين قوسين :
فيليز (دى سيساك) .

وعلى لوحة جديدة ، على باب مسكن آخر ، أبدل القوسين
بعلامة أخرى بعد الاسم الأول . هكذا :
فيليز ، دى سيساك

ولما أن نقل إلى مسكن جديد لثالث مرة وضع لوحة
جديدة هكذا :

فيليز دى سيساك

أما الآن فلم يعد يرى لوحات على باب وكيل الأعمال الذى
يشغل مسكنا فى الطابق الأول من احدى منازل شارع نيف
دى بتيت - شامب . وقد بنى قصرا فى ميدون . ومسيو فيليز من

سيساك قريبا من سان مامى - لاسلفيتا . بمديرية كانتال . حيث لا يزال أخوه يدير طاحونة إلى يومنا هذا .

ولما علم مسيو فيليير أن جزءا من البوت دى مولان يجب أن يهدم ليخلو محلا للمسرح الفرنسى أسرع يضع الخطط الوافية . ويرسم الخريط اللازمة . وحادث فى ذلك الملاك والتجار العظماء الذين يملكون مبانى فى البوت دى مولان . ولما كان مسيو هافيلان يملك منزلا كبيرا ملاصقا للبوت وعلى مقربة من المسرح فقد ذهب لزيارته فى قصر موريس . وهذا المنزل تملكه عائلة هافيلان منذ قرنين .

وهنا نرى أن نقص عليك شيئا من تاريخ هذه العائلة :
أسس المالى جون هافيلان مكاتبه فى عام ١٧٨٩ وكانت بينه وبين دوق أورليان صلات وثيقة . وكان يريد ترشيحه خليفة للوى السادس عشر ، إذا ، كما كان يحلم ، ما ظل الفرنسيون على نظام الملكية الدستورية . ولكن لأحوادث فى سيرها العنيف . ولا الدوق نفسه الذى لم يكن قد وطد العزم على ذلك . حققوا ظن المالى المقدام الذى انضم إلى البلاط وصار يعمل ضد الثورة . واتصل بالملكة بواسطة السيدة الجميلة أليوت . . ولكن . . لما

كانت القذيفة الأولى وسقطت الملكية نهائيا في ١٠ أغسطس
هرب الى انكلترا وأقام على صلة بدوق برنسيك والأمراء .
وأراد عامله دافيد أوار الذى كان فى عامه الأول بعد الثمانين ،
أن يبقى فى پارى ليرعى مصالحهم المهددة بالضياع . ولما لم يكن
قد حصل على تذكرة خاصة من الثوار . حامت حوله الشبهة
وقبض عليه ثم سيق إلى الكونسيرج (محكمة الثوار) حيث ظل
نسيا منسيا أكثر من أربعة أشهر قدم بعدها ، فى الثامن عشر
من يوليو عام ١٩٧٤ ، كالعصاة إلى محكمة الثوار التى قضت بموته
ونفذ الحكم فى اليوم نفسه على المقصلة التى نصبت على قنطرة
- ترون - التى سميت (رنفرسيه)

ولم يصب مصرف هاڤيلان ما أصاب غيره من السلب والتدمير
وذلك بفضل أمانة ونشاط هذا الشيخ أما البوت دى مولان
فقد انتهت شهرتها كبيت مالى وقد عرضوها للايجار وعند ما
تقرر هدمها ، كانت فى حالة تعسة قتم لونها ؛ وتلطخت بالسواد
وترى النوافذ التى على الواجهة وقد علتها الأصداف على طراز
لوى الخامس عشر ونصب تمثال هزلى يرتدى القبعه ، وقد
تخلع على القوس وامتد إلى المدخل وفى الزوايا نقوش ولوحات

زخرفية جزءها الأول ملون بالازرق والآخر بالأصفر وعلقت لوحات إلى يمين الباب وشماله وتحت القوس تحوى أسماء بعض الناسخين والعملاء . وفي الداخل ، أقيم على الدرج الحجري موقد فاخر من الحديد المطروق ، وقد علته الأتربة والبصاق والقاذورات . وتتصاعد منه رائحة قلوويه تنه . وتدوى من الداخل ، على أبواب الطبقات ، أصوات الأطفال . وتلح من الأبواب الداخلية النسوة في مآزرهن والرجال في قصانهم . أرسلت بهم البطالة إلى هذا المكان القفر يتسكعون فيه .

هذا هو منزل هافيلان في عصره الأخير .

ولما كان مسيو فيلير مكلفا بالمحافظة على مصلحة المالك . فقد زارها وعين ثلاثين متراوحانوتين مستقلين واثنين وثلاثين منافع مختلفة ، بما فيها الأسطبل حيث يودعه أحد التجار عربته . والسطح الذى اتخذته أحد العمال محلا يخطط فيه على ما كينته . وقد عملت بكل هذا مذكرة لتنير الطريق أمام اللجنة المشكلة من مجلس بلدى المدينة لتقدير العقار . وفى حالة ما إذا اضطروا للالتجاء إلى المحاكم ، تعهد مسيو فيلير بأن يقدم المحامى والنائب ويقوم بكل ما تعوزه القضية . وقد أدب مسيو فيلير مأدبة

للمسيو هافيلان أولا في بارى ثم في ميدون . وهو دائما يدعو عملاءه إلى مائدته حيث يبدى لهم أبلغ ضروب الحفاوة ، وأمام الزجاجات يعرف كيف يساير الرجال . تلك الزجاجات التي تعرف كيف تفتح مغاليق قلوبهم وكيف تجذبهم إليه . وهو نفسه يعبدها ويرى فيها الحياة والمثل الأعلى . وقبل أن يتسم له الدهر كان يجلس على مائدته التي غطاها بطبقة من قطرات الشمع يكرع النيزد الأبيض ويأكل المارون المشوى . أما الآن فانه يستقبل زائريه في منزله الأنيق .

اتهى مسيو فيلير ومسيو هافيلان من شرب القهوة وقد انعكست أشعة الشمس الحمراء ، شمس المغيب ، على غرفة الطعام فأكسبتها لونا ذهبيا ، وكان رجل الأعمال المنتفخ الخدين يحدج في زائره قائلا :

دعنى أذوق هذا الكونياك يا عزيزى الجزائرى وقد بدى له لقب الجزائرى أنيقا فتبعها بكلمة :

« البيون » ، يقصد إنجلترا ثم اعتذر لأنه لا يزال روماتيكى أحسنى مسيو هافيلان الكونياك وطلب كأسا من النيزد قائلا : أرجو ألا يطول الانحراف الذى ألم بالآنسه فيلير .

نهض مسيو هاثيلان في غلظة أنجليزية وهو يتباطأ لآلم لحق
بركبيه من جراء الروماتيزم . وأرسل معطفه الأصفر على
ذراعيه . وبينما كان يجتاز الحديقة قال لمضيفه :

— لى الشرف أن أطلب إليك يد أبنتك الآنسة فيلير .

وقد كاد الرجل الصغير يندفع فى طيش فيجيبه بالقبول
ولكن الانكليزى عاجله بأن وضع فى يده ورقة قائلا :

— ستجد فيها التقدير الحقيقى لثروتى . أرجو أن يصلنى
ردك ضمن خطاب مسجل . آه تريد أن تصحبنى مودعا .. لا
سم سار فى خطأ متثاقلة إلى المحطة .

أخذ مسيو فيلير يفكر حتى أنه دار حول الكهف الصناعى
اثنتى عشرة مرة مشدوها . وقد أضاء وجهه القمر فأظهر خديه
المتفخين وبدا وجهه كأنه وجه تمثال مضحك . كان يحدث
نفسه :

— ماذا ؟ أن هذا الانسان يدخل منزلى كالأخرين . ولقد
عاملت مائتين فى عام واحد - أنه لم يقل شيئا وقد رأى ابنتى
سته مرات ولم يفتح فمه إلا ليطلب يدها منى . آه هذا ! ولكن ..
هل تمثل هيلين هاته المهزلة ذات الشخصين ؟ ولكن .. لا ! لست

بالآب الهزلى . لست بالكاساندر: (١) أتى على اتصال بما يحدث
عندى . وعلى يقين من أن الفتاة التى لم تخاطبه أربع مرات
سترفض . عضن على بنانه ولمعت عيناه وهو يقدر العقبة التى
سيبترضه . ثم دخل القصر فر من أمام غرفة الطعام وقرأ
الورقة التى أعطاهها له مسيو هافيلان . ثم صعد إلى غرفة أخته
فوضع سيكاره على السياج الذى يحيط بالموقد وجلس كالطبيب
على رأس المضجع النائمة فيه هيلين .

— آه حسنا .. كيف الحال يا حبيبتى ؟

ولما لم يتلق جوابا أضاف :

— لقد سأل مسيو هافيلان عنك الليلة بلهجة ودية .

وتنفس مسيو فيلير عن أكلة ثقيلة وقال :

— وما رأيك فى هذا الرجل ؟

ولكنه لم يتلق جوابا أيضا . ورأى على ضوء الشمعة التى

تشتعل فى الموقد عيناها الجاحظتان . ووجهها المقطب .

وقد فطن إلى أنها عرفت مقصده فلم يربدا من مواجهتها .

(١) هذا الاسم يطلق رمزا للآب الذى يخدعه اولاده ويسخر منه الناس وهو
علم على شخصية من الشخصيات الأولى الممتازة التى وردت فى الروايات القديمة

— أن مسيو هافيلان يريدك زوجة .

فأجابت

— لا أريد زواجا . أتنى سعيدة معك

فوضع يديه على ركبتيه وتأوه من خنجرة لحنها وسداها
من المسكر ثم ما لبث أن اتخذ هيئة رجل الأعمال وقال :

— فليت . أنك ترفضين ما أجبته اليه ؟

— آه حسنا . ماذا أجبته ؟

— لم أقل شيئا يفضبك يا أبتى . أتنى أريد أن أدعك طليقة
ولا أستعمل الحق في أخضاعك لأرادتى . أنك تعرفين حق
المعرفة أتنى لست بقاس .

فتمتت :

— لا أنك أب صالح . ولكنى لا أريد أن أتزوج . أنك

لن ترغبنى على ذلك .

فعاد للكلام بلطف :

— أتنى أكرر ماقلته أنك مطلقة الحرية . ولكننا نستطيع
أن نتناقش . أتنى والدك الذى يضر لك الحب والأخلاص
ويمكنى الآن أن أصارحك أشياء لا أشك أنك ستقدرينها .

بما أنك فتاة كبيرة كاملة . لتناقش كصاحبين : نحن نحيا حياة لا بأس بها . ولكننا لا نمتلك ما يطلقون عليه الثروة . أتى ابن أعمالى ولقد أصبحت تعباً . تعباً جداً ! ولربما تنتهى مرحلة حياتى قبل أن أشاهد قرانك . أنك فى الثانية والعشرون . واليد التى تمتد إليك اليوم ليست بمستحقة رفضك . أن هافيلان ليس شاباً . ها أنت ترين يا بنية أتى عادل . ولكنه رجل عصى . يتمتع بشيء كثير من اللطف . ثم أنه على ثروة عظيمة . — ولما نطق بالكلمات الأخيرة ضرب جيبه الذى وضع فيه الورقة التى أعطاها له الانكليزى واستمر :

— أن شيطان هافيلان يقف على قمة ثروة هائلة . ضياع ، قصور ، نفائس ، ثرة عظيمة ، كل هذا ! أنه لعظيم ! فظهرت عدم استحسانها وهزت منكبيها . عاد الوالد الى حديثه :

— لا تظنى يا ابنتى ، أتى أريد أن أزوجهك مايسمى زواج المال . كلا ! أتى أحبك وأحب سعادتك .

وهو يحبها حقاً . وقد انحد صرته عند ذكر المحبة . قال :

— لقد أراد الله ألا أبغى فى هذا العالم إلا سعادتك . أتى

أعرف أن هذه مسألة الشعور . ولما تزوجت بوالدتك لم أنظر إلى الثروة . أتريد أن أصارك القول ؟ أنتى رجل خيالى . آه ! أنتى شخص رومانتيكى . هل تعلين ماذا كنت أفعل لو أنتى لم ألق نجاحا فى عملى ؟ أنتى لأعزل بعيدا فى الخلاء لأنظم الأشعار . ولكن ماذا تبغى الآن ؟ لقد ضحيت نفسى الخيالية وروحى للأعمال . والآن قد أصبحت شيخا فانيا ! آه يا آنسة ! أن الحياة ليست كلها موردة فيجب أن تتعلى خلق التضحية . أنتى أريدك أن تسعدى يا بنيتى . أريد أن أمنع عنك شبح البؤس والفاقة . كفى أن والدتك التعيسة قدمت نفسها قربانا على مذبح الواجب . ماتت ضحية الواجب ، أسمعين ؟

مر يده على عينيه . لقد ماتت زوجته حقا أثر مرض صدرى وسط عائلتها فى نيورت حيث أرسلها هو لقضاء بعض الأعمال . أخذ رأس أبنته بين يديه وجعل يطرها بقبلاته ويصعد الزفرات الحارة :

— أصنى إلى أنتى أعرفك جيداً يا ليلى يجب أن تتوفراك . السعادة والعظمة . أن هذه غلطى لقد كنت طماعاً لم أجد عندى أعظم وأجل من هذا لأقدمه لك . لقد ريبتك للثروة أنك لم

تتعلّى لا الخدمه ولا الحساب فاذا لم تصيرى غنية تكونين أتعس
نساء العالم وسيقولون أنتى مصدر تعاستك أية مسئولية يتحملها
أليك المسكين ! أن هذا يقضى على ! ولكن .. لقد أتى الثراء ..
هاهو ذا يقرع بابك . ماذا ؟ أيتها الصغيرة . فلندعه يدخل فكري
جيداً ؟ أنتى أحبك . أعجب بك وأقدر ما يلائمك ! إن الحب لن
يخدعنى . دعينى أفعل .

سألت هيلين بفتور عما إذا كان مسيو هافيلان يقيم باستمرار
فى پارى . فصاح والدها الذى لا يعرف عن ذلك شيئاً ! أجل .
بالتأكيد !

وأضاف بان أخلاق صهره المقبل حميدة . وشعوره راق .
ثم طرق الباب الاخير فأخذ يتحدث عن القصور والعربات
والحلى .

أخذت هيلين فى استعراض خواطرها . لقد مضى رينيه
لسفر طويل الأمد دون أن يتفوه بكلمة عن حبه . أو عن أمله .
لو كان قال أنه سيعود ! أو ترك تذكاراً ! ولكن شيئاً من ذلك
لم يكن . وهذا يعنى أنه لا يحبها . أجل انه يحب كتبه وأبحاثه
وضفاده . لقد كانا يتحدثان ولكن محض نظريات . هذا كل

ما هنا لك ولكن ما يقوله لها هو عين ما يقوله لغيرها ! فهل يحبها حبا صامتا خفيا كما ظنت ذلك مرارا ؟ إذا فستنتقم من هربه . ثم ان والدها محق فيما قاله من أنها لم تخلق إلا للغى والآهة . . ولكنها تعود فتفكر كيف ستقاوم ؟ وأى تعب يتأهلها من هذا النضال .

لقد كانت هيلين من النفوس التى تلين للفشل اذا ما فاجأها فى المرحلة الأولى .

ها قد عرض لها أخيرا الحب الجديد . . حب الأجنبي الذى طاف العالم خمس وعشرين عاما ، وهى تعلم تماما كم هو متين هذا الحب ، وهو الذى أوحى لهذا الثرى الذى ، بعد ثلاثة أشهر كلها زيارات يطلب يدها فى سكoon ماذا لها لقبه وثروته .

هذا الرجل الجديد ، ألا يمكن أن تحبه ؟

رفعت رأسها وتمتمت

— سئرى .

٢

. من الحق أن هيلين فيليرولدت ونشأت لتكون ثرية . وهى لا تزال تذكر للطفولة تلك الجوارب المثقوبة ، وما كان يلحق قدميها من البرد . وقطع اللحم النتنه التى كانت تبغضها . والثقوب المنتشرة تحت الابواب . ثم وجه والدتها الطويل فى ليالى الشتاء ، أنها تذكر أمها فى أطوارها المختلفة حينما كانت تزأر وهى حانقة ثم وهى حزينة تتعذب .

خرجنا ذات مرة للتنزه . أين ذلك ؟ ومتى حدث ؟ هذا ما لا تذكره هيلين . انما يعلق بذهنها أنها كانت جد حديثة السن . وفى المساء أمرتها والدتها أن تنام ثم خلعت قميصها وغسلته فى الحوض . ولقد طربت حينذاك لمنظر والدتها وهى تتدثر بشالها وتعج أيديها بالصابون . ولكنها حزنت كثيرا حين اكتشفت أخيرا أن والدتها لم تفعل ذلك إلا لفقرها المدقع .

ولقد كانت ، منذ حداثتها ، مخلوقة لطيفة المشاعر تحس وتألم ، وكم أعطت لرفيقاتها الفقيرات قطع الحلوى وملابس قديمة لعرائسهن اللاتي يلعبن بها . وكانت تقنن عصفورا

أودعته قفصاً تملأه على صاحبه بقطع السكر والحلوى . هذا
العصفور الذى بقدر ما أفرحها . سبب لها هموماً وآلاماً لا
تطاق . لقد فعلت كما جاء فى دواوين الشعر : « لقد شيد برا كسو
مقبرة لصرصوره الذى عرف منه بان الانسان مصيره الفناء ،
وهكذا حزن هيلين على عصفورها . زمناً طويلاً . أما والدتها .
فلما كانت ترزح تحت أعباء البؤس ، والضيق ، وخلو أيدي
زوجها من المال ، فقد خلت من هته العواطف ، وهذا الهدوء
والاطمئنان إلى الحياة . بل لقد خلت من كل عاطفة تحملها الأم
لأبنائها الصغار . وتجردت من المجاملات والمداعبات التى تقابل
بها الأمهات هته النفوس الصغيرة المظلمة التى خلفوها إلى العالم .
وهيلين فى طفولتها جد قديرة على تمييز شتى المعاملات الطيب
منها والردى . ذات يوم صاحت أمها فجأة : - أن هذه الفتاة
ستميتى . اتى لا أعرف ما الذى جنيت فى حق الآله حتى
يرزقنى بهذا الوحش المفترس

ثم أزدبت ، وانفعلت فأخذت تصعد الزفرات الحارة
وتدفع بالابواب ، وأمام هته الثورة ، انسلت هيلين المسكينة
إلى مضجعها فى هدوء . فنامت ودموعها تسح على خديها . وفى

الصباح أفاقت على صوت القبلات ، والمداعبات ، والاغنية التي نظمتها لها والدتها .

أما والدها فيلين ترى فيه الظرف والعظمة . وكم أعجبت بمنكيه العريضين وصديريته البيضاء فهوأله بالنسبة لابنته ، ولكنه على طريقة الآلهة ، قليل الظهور ، يغيب يومه ويعود متأخرا

كان يصحبها أحيانا في عربة إلى الحديقة ، وإلى المقاهي حيث يقدم لها حلو الشراب . وكانت تمد طرف لسانها في كوبة أيها وينبسط وجهها عند ما تذوق مرارة الشراب الأخضر وكان هذا من دواعي سرورها . ولكن لم يكن هذا السرور ليدوم طويلا فان الآلهة يعود إلى الاختفاء . فتجلس إلى جانب والدتها تفكر في والدها المحبوب . وهي تستعرض صديريته البيضاء التي تخطف بالبصر وكانت تميل إلى الكسل والبطالة . ولم تكن ما دام فيلير لتلتفت لبطالة فئاتها وخمولها . وقد طبعت الاخيرة على حب الأناقة والآلهة وكان ذوقها في الملابس وترتيب المائدة محل أعجاب مسيو فيلير .

وفي السابعة من عمرها وضعها والدها تحت إشراف سيدات كالفير حيث التحقت بنزلهم في أوتوى . وقد ارتاحت كثيرا

لته الملابس البيضاء ، ووجوه الأمهات الناصعة البياض ،
والسكون الذى يشمل المنزل ، وطمأنينة الحياة العادية .

وفى يوم قليل لها أن والدتها التى سافرت من مدة لن تعود
قط . وقد أفزعتهاهاته العبارة فانفعلت واجهشت بالبكاء . وقد
ألبسوها رداء أسود واخرجوها إلى الحديقة . وقد بدت لها
الحديقة قطر واسع مليء بالأسرار ، والكائنات الحية ، ومعنى
جميل . ومهد المعجزات .

وكان والدها يزورها كل أسبوع حاملا لها الحلوى . وهو
يمتلئ حبا و إعجابا بها . وقد أنهكه التعب ومل العمل طوال
الأسبوع . فهو يرى كل يوم خميس ، وقد نظم شعره ، وحلق
ذقنه ، ورتب ثيابه ، فى مطبخ سيدات كالثير . وقد بدى منظره
سعيدا وخديه الأبيضان ذو أنساق لطيف . فهو محل تقدير
وأعجاب الأم سانت جنيف مديرة نزل أوتوى . كذا كانت
تحلم به اثنتان من كبار سيدات المنزل أثناء سباتهن .

أما هيلين فهى تجل والدها وتعجب به أيما أعجاب . وفى
الحق كان مسيو فيلير جديرا بالبطولة وفى يوم خلت فيه جيو به
من النقود . استعار من صديق له مجموعة أشعار الفريد دى

موسيه ، وقد رآها على الطاولة ، قائلا : « أتى أريد أن أقرأها
لمائة مرة ، ثم ذهب يبيعها في الشوارع ليشتري قفازا ، جلس
يفك أزواره دون عناية في اليوم التالي أمام الأخت الراهبة
المعكفة بالاتصال بالاهالى . أما الحلوى التى يحملها إلى ابنته
ولصديقاته فى كل زيارة فهى من محل ممتاز ، موضوعة فى علب
فاخرة تدل على ذوق سليم . وقد أعجبت الأم سانت جنثيف
واستشارته يوما فى مشكل طارىء . وقد بذل فى سبيل ذلك
وقته ومهارته وذكاؤه . وكم اهتز زهوا وعجابا وترنح خيلاء وهو
يقلب ملفات القضايا أمام الأم المحترمة . ويبل أصبعه من
طرف لسانه فى شئ من الوقار والتيه . ويندفع يشرح للام
ما شكل عليها فهمه يبحث ويحلل ويدافع ويناقش . كل هذا
والسيدة الجميلة ذات الرداء الأبيض تنصت فى امثال ، وقد
ارتخت عيناها ، وتدلت أكام ثيابها على يديها . لا تتكلم إلا بصوت
منخفض . الامر الذى لم يصادفه مسيو فيليز طول حياته بين
زبائنه كثيرى الضوضاء والجلبة .

وكانت الام سانت جنثيف تتخلق بخلق العصور الماضية
فقد أبى ظرفها أن تشك فيما إذا كان مسيو فيليز يبغي نقودا .

لقد قدم إلى هته الجمعية الدينيه مبالغ كثيرة . وكم داخله السرور حينما سمع يوم أحد الوعظ المسائى فى أحدى الكنائس الصغيرة . ثم اكتشف ابنته مكبة على كتاب الكنيسة بين حفيدة مستشار قضائى وابنة عم أمير ، وبعد أن أنعم النظر إلى شعرها الجميل ومنكبيها اللطيفين ، لمع زجاج نظارته ، وتمخط كما يفعل فى الممثل بعد المواقف العنيفة

لقد كلفته أعمال هته الجمعية بعض المال ولكنها ربطته بعلاقات مفيدة . وقد حدث نفسه :

— لقد أكتسبت شهرة كبيرة وذاع صيتى .

وقد اكتسبت صديريته لونا جديدا . وزهت على صدره آثار تلك المادة التى يلصقها بها كلما عن له أن يتمخط !

نمت هيلين وازدادت حسنا وبهاء . واكتسب شعرها لونا ذهبيا بعد أن ظل ردحا من الزمن يعج بلون باهت كهذا الذى كان لائما . فاصبحت فائقة الجمال ، غضة الأهاب ، رائعا البهاء تفيض نفسها الشاعرية عطفًا وحنانا وقد اتخذت لها صديقا تدعى سيسيل تزورها فى الأيام التى يسمح لها بالخروج فيها وهذه الصديقة هى ابنة لرجل يشتغل فى القطع ، وكانت هذ

المخلوقة الصغيرة الثرية في السادسة عشر . تبدو عليها مظاهر الطفولة والوجاهة ، ووداعة الأخلق . ولكنها تحمل نفس سيدة في الثلاثين من عمرها الشيء الذي جعل لها مركزا ممتازا بين صديقاتها .

ولقد اقتادتها يوما عند والدها ، في ياسي ، في غرفة أنيقة ملأى بالطنافس حيث قدمت لها الحلوى . ولقد بهرت عيناها هته الطنافس . ولكنها ما كادت تخرج حتى بدى لها كل ما رآته تافها لا قيمة له .

وقد استسلمت لأحلام لذيذة . وأمانى طيبة . وأصابها مرض معدى أقعدها عن النهوض . فهي غارقة في بحر زاخر بالأحلام تشهى في أن يكون لها غرفة زرقاء تقرأ فيها القصص وهي مضطجعة في مقعد طويل .

وفي ذات مساء سمع صوت ينادى : النار ! فذعر كل من في المنزل وخرجوا مهرولين البعض في ملابسهم الداخلية ، والآخرون مندثرين بالأغطية ، الصغار منهم يتبعون الكبار وهم يتعثرون في قمصانهم الليلية الطويلة . وسرعان ما تبين كذب الخبر وأن النار لم تشتعل إلا في رأس هته المخبولة صاحبة هذه

الأكذوبة . أما الإثم سانت جفيف فقد وبخت هذا الجمع الحاشد بقدر ما أثنت على هيلين التي لم تترك مضجعها . والواقع أنها لم تكن لتغادر مضجعها لأجل مثل هذه الأخبار . بل كانت تحلم في هذا الوقت ، في الحلى ، والملابس ، والخيول ، والنزهة ، والقوارب ، ثم تعود فتسح الدموع لذكرى والدها .

وقد خرجت من هذا المنزل وهي تحسن إداء التحية في غرفة الاستقبال . وتجيد العزف على البيانو . وقد صار منزل والدها لائقا بها . وأصبحت تملك غرفة زرقاء . وقد لاقت من والدها عطفًا وحنانًا . وكان يصحبها إلى الملاهى حيث تتناول عشاءها بعد انتهاء التمثيل . وقد عرفت أن هذا الأب الظريف هو غير ذلك الذى كانت تراه في نزل سيدات كالثير حيث تعلت آداب المعاشرة والحديث والذوق السليم

وقد جذب جمالها جمعا من الناس كانوا يجتمعون عند والدها ولكن أحدا لم يفكر في طلب يدها بل أنها لم ترى بينهم من هو كفو لأن يكون بعلا لها إلى أن ظهر أخيرا شاب حاز أعجابها . هذا الشاب هو رينيه لونجمار الجراح الملحق بالجيش . الذى أوفده والده الوسيط التجارى الشيخ فى أردن لقضاء بعض

الأعمال عند مسيو فيليردى سيساك وقد قطن شارع نيث - دى
بتيت شامب

وبالرغم من امتلاء جسمه القوى ، ووجهه الممتلئ صحة ،
فانه لم يك جميلا . وكان حديثه على شئ من الخشونة والأبهام .
ولكن هيلين أحبت رؤياه وسرت لحديثه . وكان يتحدث إليها
عن الدين والاخلاق ملقيا إليها بنظريات غريبة ، كانت تسر
منها ولكنها لا تفهم منها شيئا !

وقد قال لها يوما :

— أن الانسان جاء من سلالة القرودة !

ولما شدهت واحتجت أخذ يؤيد نظريته ببراهين كثيرة
معقدة ومضحكة . وقد اصطحب لونجمار بعض اصدقائه .
وتكونت هيئة من الشبان العلماء عند هذا الطيب القلب مسيو
فيلير الذى لم يعره أى اهتمام

وقد جاهر الجراح ببعض الآراء منها :

أنما الفضيلة عجز .

البسالة والقداسة هما نتيجة احتقان فى المخ . الفالج العام
ينشأ وحده الرجال العظام . الآلهة هم صفات .

وقد صاحت به :

— حذار !

ولكنها لم تحجم عن سماع حديثه والاعجاب بهته الحرية والصراحة يدفعها إلى ذلك عامل خفى . حتى أنه فى المساء بين قدح الشاى وزجاجة الكيرش كان يلقى عليها دروسه العظيمة وأحاديثه عن الطبيعة وغرائبها وأهوالها .

ولكن كان يرتفع من الردهه المجاورة أصوات أخرى عن القضايا التجارية وأعمال المناقصات والمزايدات !

وهنا يبدو لها شبح عظيم يتقدم فى هدوء تعلو وجهه حمرة قانية . تبدو عليه علامات النبل والعظمة . هذا هو مسيو هاثيلان وهيلين تقدره وتعلم أنه سليل بيت عظيم ، ورييب المجد والعظمة وتلمح منه آيات الحب ولو أنه لم يفتحها بل لم يخاطبها طيلة حياته أما لو نجح فهو فى كل محادثاته ساذج يحترمها ويعجب بها سرا . ويحاول أن يدخل السرور إلى قلبها بأحاديثه فهو دائما يحافظ على الظهور أمامها بمظهر الرشاقة فى الحديث والاستهواء بنكاته .. كان يشعر فى أغلب الأحيان بالثبات يحكم عاطفته لاعتياده على النظام العسكرى ولأنه يعرف كيف يستعمل

شجاعته الاديية . أنه يحب من يحادثها ويحبس قلبه يخفق ولكنه
لا يتحرك بل كان أحيانا ينحبس لسانه فى حلقه ..
وهو لا يمتلك إلا مرتبه وهو يعلم أن الآنسه فيلير لم تكن
ذات ثراء وافر ..

ثم هى تعطف عليه وتذكره حتى هذا اليوم الذى جاء مودعا
فيه . وكم أثر فى نفسها ذلك الفراق . وكم أقض عليها مضجعها
ذكراه .

٣

كان منزل البوت دى مولان قد سقط بناؤه وكسر المعول الوجه الرمزى الذى لون إحدى خديه بلون أزرق والآخر بلون أصفر إلى قطع صغيرة . واختفت الغرفة الصغيرة التى قبض فيها على الشيخ دافيد أوار الذى قدم إلى محكمة الثوار ثم إلى المقصلة . وبعد مدة وجيزة كانت سحب التراب التى تهب الى الشوارع المجاورة تحمل معها آثار هته العمارة القديمة فتصاعد أتربتها ذى الرائحة الخائقة الى حناجر الرجال والجياد التى تمر من هنالك . والآن لا يعرف سكانه ، وبينهم صباغ وصانع مفاتيح ، مكانه الحقيقى .

زادت أملاك مسيو فيلير دى سيساك فى ميدون ، وقد زاد من حجم الأعمدة الحديدية التى كانت تكون الباب العمومى للقصر المجاور وضم إليه مساحات الفضاء المجاور . حيث بنى عليها قصرا صغيرا ذو شرفات عالية . فى أسفلها فتحات عليها نقوش بديعة . وأطلق على الجميع - مغنى سيساك - وفى ذات يوم علقت على الباب الكبير لوحة كتب عليها أن المنزل والقصر وما يتبعهما للبيع أو للائيجار .

ومرت الفصول الأربعة واللوحه ترقص وسط الرياح وأثر
عنها أشعة الشمس وهطول المطر . فاصفر لونها وتكسر شكلها .
أخيرا ، في أيام الربيع ، وقد انتشر سكون رهيب على
ميدون ، دخل القصر الصغير رجال متقبعون بقبعات من الجلد
يسرون بخطى ثقيلة . قد نابت أكتافهم تحت البنادق ، هؤلاء هم
جند الألمان . فاشعلوا النار في الموقد الكبير والأرضية المدهونة
بالزيت . وقد تشقق السقف وتصعد البنيان .

وجاء الشتاء العظيم . وغزيت فرنسا ، ثم حوصرت پارى
وفي هذه المحنة العظيمة ، محنة شعب بأسره ، أقل حظ مسيوفيلير
وانتهت ثروته إلى الفناء . ولما أن تعطلت حركة العمل ، وتعطلت
محكمة السين في عهد وزارة شيغاندى ، وجاء ذلك ضربة قاضية
على مكتب الأعمال الواقع في شارع نيف - دى - بتيت شامپ
وذهب مسيوفيلير الذى تجههم له الدهر مرة ثانية يحمل رذنجوناته
القذرة وعويناته ذات الأصداق . ولم يعد يصنع ذقنه ، ذهب
إلى محلات المقامرة حيث غامر بنقوده الباقية فخرها .

ومنذ أن غادرته أبنته وهو يتلقى فتيات جميلات ولا تلتقى
به فى ممثل الفولى برجير إلا وراه متأبطا ذراع امرأة . وفى أثناء

حصار پارى أسس شركة للتأمين على الحياة «عقلاء»^(١) المحرمين
الاهلي، ولكن أحدا لم يعرفها أى اهتمام .

تزوجت هيلين وقامت بسياحة استغرقت أربعة أعوام .
فكانت تلك الحياة بنعيمها داعية إلى سرورها . ثم أن عظمتها ،
جمالها ، أبتها ، وملابسها الفاخرة ، كل ذلك كان داعيا للأعجاب
بها أينما حلت ، فى الفساد والملاهى حيث كانت ترسم على
وجهها وفى حركاتها مظاهر الأرسوقراطية . وقد خفق قلبها بحب
زوجها ، ولكنه كان مملا . فهو يرى ويسمع ويتكلم بمظهر
واحد . لم يكن ليميز بين الأشياء الكبيرة والصغيرة . فكل شيء
لابد من تقديره . وقد ظل مرة يشاجرها زهاء ساعتين من أجل
ثلاث فرنكات لم يعرف أين صرفتهم .. فهو يصرف الكثير
ويدقق على القليل . والكرم عنده يتخذ مظهر البخل . ولقد
أباح لها أن تتصرف فى إرادته وتبدد ما تشاء على شريطة أن
تسد كل ما يطلب منها وتؤدى كل الواجبات . فتصرف ثلث

(١) اسم لطائر وهمى فريد في نومه . تعانى فرونا عدة ومات على اللورد نيم
بعث من نيمه

حياتها في حساب السنتيمات مع خدم الفنادق وكانت له خطة
لا يضيع معها نصف سنتيم هباءً .

ومن جهة أخرى فهو يدير حركة قياس الأبعاد .. إرتفاع
ميزان الحرارة .. ودرجات الميزان الجوى . اتجاه الرياح ..
والسحب حتى أنه كعب مساحة فضاء فرجينيا فى نابل .

وهو يحب النظام ولكنه يحبس نفسه عن الألم عند ما يرى
صحيفة تظل مفتوحة وملقاة على مقعد طويل . وقد أغضب
هيلين لأنه رآها أكثر من عشرين مرة فى اليوم ممسكة بكتابها
أو بأدوات التطريز . وقد تذكرت هيلين والدها الذى كثيرا
مانسى سكاثره على أذرعة مقاعد السيدات ولكن لم يكن هذا
شيئا هاما . إنما أصدق الألم الذى ترزح تحت عباء هو حياتها
مع رجل دائم التفكير . وهو لا يعرف كيف يعبر عن شعوره
ولا كيف يدخل السرور إلى نفس أخرى . فنذ أن تزوجها ولم
يفتح فيه بغير الأوامر . وأنتك لتقدر ألم زوجة شابة عند ما
يكون زوجها غير قادر على إدخال السرور إلى قلبها . حقا أن
قلبه يحمل لها شيئا وافرأ من الحب والعطف ولكن حبه شبيه
بقطرة من قطرات المطر الرفيع . لا يدركها بصر ولا تسمعها

أذن . لا تريد أن تنقطع ، تنفذ إلى الداخل وتسبب بردا خفيفا
وبذا تشعر بوجودها

ويلحق بالسيد هاثيلان خادم قد طاف معه العالم مرتين .
وهما لا يفترقان البتة عرف السيد خادمه الفرنسي جرول شابا
في أفرانش ولم يكن هذا الأخير جميلا ، ذا شعر أحمر وعينان
زرقاوان تشعان شكا . يعرج في سيره ولكنه كان نظيفا يؤدي
عمله بهمة نادرة . تزوج من امرأة في خدمة الميسو هاثيلان . وقد
تركوها في پاری حيث تقوم بحراسة المنزل المبنى حديثا في شارع
« لا تور - موبورج »

ويشتغل ميسو هاثيلان بالكيماء . وساعده الأيمن جرول .
وكما أنه يتعاطى الأدوية يوميا . فأن جرول يدير صيدليته المتنقلة
كان هذا الجرول حاد الذكاء يحضر الأدوية بنظام ثم هو يصلح
كل ما يتلف في المنزل . ولقد أبدى مهارة في عمل المفاتيح . له
بدان نحيفتان ذوى شكل غريب . وسبابتان مفزعتان . وهذان
البدان تقومان بأدق الأعمال والطفها . ومع أنه ذو مهارة فائقة
في الفنون الآلية فإنه لا يجيد الكتابة بشكل يقرأ . وقد اخترع
جروف هجا خاصة لا يعرفها سواه . ولا يمكن التوصل بأى

حال إلى مميز حرف أو عدد في الورقة التي كتب عليها حساباته بخط هو غاية الردأة .

وكانت كتاباته الرمزية المخيفة ، ومخالبه البشعة ، ومشيته العرجاء ، ورائحة الأدوية التي تهب من جسمه الذي أبى إلا كسيد إلا أن يترك عليه آثاره ، كل هذا دعى لأن تخافه الخدم والطهاة ، الذين سموه كلوشون - كما يخافون الشيطان ، وقد حكموا عليه بأنه قادر على عمل كل شيء ولكن جرول كان بعيدا عن أن يرتكب أى خطأ .

أما هيلين ، التي كان يمجها في الباطن فقد خدعتها مظاهره ولكنها سريعا ما كشفت أنه لا يترك فرصة دون الايقاع بينها وبين زوجها . وقد أحاطها بشيء من المظاهر الخداعة . فكان خادمها الأمين الذي لا يبرحها لحظة واحدة

ولم يكن سوء ظن سيده داعيا لخوفه فهو يعلم أن ثقة سيده فيه عظيمة وأن هذا الأخير لا يقصيه عنه بهذه السهولة ولسبب تافه . أن علاقة مسيو هافيلان بخادمه جرول ترجع إلى عشرين عاما . حينما كانا يبحثان سويا عن صامويل أوار .

واليك هه القصة :

كان مسيو هاڤيلان لا يزال حديث السن حينما سمع عن موت الشيخ دافيد أوار الذي ذهبت المقصلة برأسه عام ١٧٩٤ وقد كان هذا الباسل مثال التضحية والوفاء ، فإنه بقي على عهده لمخدوميه . وضحي حياته في سبيل حفظ ثروتهم التي ولوه أمينا عليها . وقد أعجب وريث هاڤيلان بهذه المروءة وأكبر فيه البسالة والوفاء فلما تولى ثروته بنفسه أخذ يبحث عما إذا كان هذا الرجل قد ترك سليلاً له . فعلم أن ولده الصغير ويدعى أندرو أوار يشتغل بالتجارة في كالكوفا . وفي الحق كان أندرو أوار متأهلاً بسيدة هندية وقد اشترك مع رجل براهمي لتأسيس شركة تجارية تحت اسم : « أندرو أوار ، وليسا ليسالي وشركاهم ،

أبحر مسيو هاڤيلان مع جرو ليقابل أندرو في كلكتا ويقول له : أن جدك قد ضحي نفسه في خدمتي وكان في ذلك مثال الشرف والمروءة . فاسمح لي أن أصالحك . وألا يمكنني أن أحوز شرف خدمتك ، فأؤدى لك أي شيء تطلب ؟ ، ولكن . لما وصل إلى كلكتا ، في عام ١٨٤٩ ، علم أن شركة أندرو أوار وليسا ليسالي وشركاهم ، قد انحلت بموت مسيو أندرو الذي قضى عام ١٨٤٨ - ضحية الكوليرا تاركاً زوجته وابنه صامويل

الذى لم يتعد الرابعة . ولما لم تكن مادام أندرو بذات ثراء فقد تركت المدينة مع ولدها الصغير . ولم يتمكن مسيو هافيلان من ترسم آثارها . ولكنه علم أن ليسا ليسالى فى جزيرة بوربون . فذهب إليها حيث وجد البراهمى يعطى دروسا فى الإنجليزية لأولاد حاكم المستعمرة . وقد قال السيد ليسا ليسالى للمسيو هافيلان أن أرملة أندرو أوار قد اصطحبت ولدها إلى أخيها مسيو جونسون أحد ضباط الملك السابقين .

وقد انتهت أبحاثه عند هذا الحد . وبلغ صامويل أوار الآن سبعة وعشرين عاما . وفى كل أسبوع كانت التيمس تنشر أعلانا يدعوهُ أن يعطى عنوانه للمسيو مارتن هافيلان فى پارى ، ولكن صامويل إوار لم يبد أى إشارة تدل على بقاءه على قيد الحياة . وقد والى مسيو هافيلان أبحاثه منذ خمس وعشرين عاما دون أى ملل بل واصل بحثه يوما بعد يوم وكان يشعر بأن هذا واجبا ، يتناوله كل صباح كما يتناول النجار فارته ويساعده فى ذلك جروول .

وقد حضر كثيرون أمام مسيو هافيلان وادعى كلا منهم أنه صامويل أوار بن أندرو المتوفى ولكن كان يتضح كذبهم .

ساعات صحة مسيو هاثيلا في خريف سنة ١٨٧١ وأصابه
رق ودوار . وقد حدث في أحد أيام الشتاء الأولى ، وقد أقاموا
في نيس ، في مغنى أوليفير - أن جلست هيلين في الردهة تقرأ
قصة ولكنها رأت زوجها داخلا فما لبثت أن صاحت خائفة :
— عيناك ، أنظر إليهما ، هناك ، في المرأة !
لقد تحولت عينا مسيو هاثيلان الزرقاوان إلى سوداوان
وانطبق فمه ، وغرب منظره .. ثم تمتم :
— سيأتى ، سام ، سام أوار .

٤

ذهبوا ليقضوا ختام الشتاء في باريس . وكان فناء المنزل ينقص
بالصناديق والحقائب . ووقفت السيدة جروول تجمل نظرها
اليأس . وقد ارتدت ثوبا هنديا ، وأحيط وجهها بهالة من
البخار ، وتدنرت بحمرلة . وهي تضع بطاقات الطرود كل في
مكانه منفذة في ذلك أوامر الوصيغة التي وقفت تلقيها لها من
طرف شفتها في حين تلتفت وتلقى بأوامرها إلى هؤلاء الذين
يرعون الجياد .

رمت هيلين بمعطف السفر إلى مقعد . فأخذه مسيوهايكلان
وأطبقه بعناية ولم تطق صبرا فأخذت تعزف النشيد التركي على
زجاج النافذة . وبدأت قبة الأتقاليد لامعة تحت سماء ملبدة
بالضباب . واكتسبت الأشياء المجاورة لونا أخضر . وهناشعرت
هيلين بملل فدخلت إلى غرفتها .

أعلن جروول قدوم مسيو فيليردى سيساك .. أتى رجل الأعمال
مسرعا ليحيي صهره ويقبل ابنته . وكانت ملابسه مقفلة بالأزار
حتى عنقه . أما قبعته التي حملت آثار التكسير ، فلقد عصت عن

أن تخضع لكى النار ، فاستعاض عن ذلك بيلها بالماء . وقد تحايل على شعره الأثيت الثائر فتناه مرة أخرى ! أما حذاء مسيو فيلير فقد كانت كعوبه تكونان شكلا منحرفا ويميلان إلى ناحية دون أخرى حتى أنه أصبح مجبرا على السير كعصفور الكنارى لكى يمكنه أن يهتدى إلى خط عمودى .

لم يصادف مسيو هاثيلان ضيفه مسيو فيلير وكم آلمت الأول كلمات الأخير « عزيزى الجزائرى ، صهرى العظيم ... » وأخذ يتكلم عن أعماله وعن الدهر قد جهم له وجهه . ولما لم يسأله مسيو هاثيلان عن أعماله واين كان . صاح :
— وعلى ذكرى هذا ، لا اخفى عنك أننى اجتزت أوقاتا عصيبة . وكأفحت ما يمكن أن يسموه أزمة .

لم يمكنه أن يخفى عن مسيو هاثيلان مصائبه . وقد تتبعه أربعة أعوام فى طلب المال . أرسل اليه يطلب مالا بالانطاد ، ثم بواسطة تاجر طيور ، وبالكتابة فى جريدة الديلى تلغراف وقد أقتنع مسيو هاثيلان فى أول مرة . ولكنه بعد ذلك لم يكن ليغنى بالرد عليه . وقد توجه مسيو فيلير إلى مسيو س . سيمسوز المالى بشارع النصر واستعمل أسم صهره المحترم والمحجوب هنالك

ليقترض مبلغاً من المال . وهذا ما جعل مسيو هاويلان يحق عليه
وأمام هذا السكون لم يربداً من أن يصارح صهره بغيته .
فقال أنه يشتغل بمشروع خطير .

وإذا ما فتح هذا الباب حتى ضرب نخذه يديه وتنفس
طويلاً ثم عاد إلى حديثه وقد صوب إلى الطنف نظرة ناپليونية !
— إن هذا المشروع سيجيء في وقت الحاجة إليه . فهو عبارة
عن مصرف للعمال مؤسس على قواعد وأنظمة حديثة . في هذا
العصر الذي ابتدأت طبقات العمال تحس حاجتها إلى الاقتصاد .
إن هذا المصرف سينبه العمال إلى الخطر الذي يهدد المجتمع من
جراه إسرافهم . سوف يبعث في الطبقات الدنيا ، طبقات المياومة ،
روح الاقتصاد وهذا ماحدى بالحكومة السابقة أن تدعو إلى
تأسيس مصلحة من هذا النوع . يجب أن نبداً .

في هته اللحظة رأى مسيو فيلير دى سيساك بريق قبعة
الاثريّة في الشمس التي شامت الطبيعة ألا تقع إلا على قبعة في
حين خلت الردهة منه بل كل المنزل . أضاف بنشاط - ولنبدأ
سريعاً - ثم سأل بعد ذلك إذا كان مسيو هاويلان يود أن يعرف
شيئاً من قوانين مصرف العمال ؟

فأجاب الأخير : - كلا !

كان مسيو فيلير يريد أن يعطى محدثه فكرة عامة عن نظام المصرف ، وقد ظن أن صهره العظيم سوف يعطيه نصائح غالية .

وأخيرا لماذا لا يصارحه . أن هذا العمل في حاجة إلى رؤوس أموال كبيرة . وهو يود أن يهرع مسيو هاثيلان ليكون من أوائل المساهمين في مصرف العمال .

إلتزم السكون وقرع مسيو هاثيلان الجرس ينادى خادمه الذى جاء يعرج . قال له .

— جرجول . أطفأ هذا السيكار .

كان هذا سيكارا حقيرا ثمنه صولدين في النزع الأخير ، وضعه مسيو فيلير دى سيساك عند قدومه على حافة طنف .

ثم واجه مسيو هاثيلان محدثه مسيو فيلير وقال :

— لن أسديك نصحا لأنك لاتعرفنى سمعك . ولن أعطيك

مالا لأنك لاترده . أنك لست رجلا ظريفا . أرجو ألا أراك

هنا مرة ثانية ، هذا وتستطيع أن ترى ابتك وقتما تريد . ثم خرج .

كانت هذه صفقة مؤلة للمسيو فيلير الذى شعر باتهاء حياته

ولكنه وجد لديه الشجاعة الكافية لأن يضم إليه ابنته وأن يلقى إليها بترهاته . وقد استقبلته هي بحنان الأطفال .

أن في أخلاق هذا الرجل شيء من اللين والتساهل شبيه بكسل ابنته . وب نظرة واحدة تلقىها امرأة ، رأت هيلين قميص والدها العتيق . الذى انتثر خيوطه عند الاطراف ، وسترته التى ابيض لونها . وقبعته التعسة وقذارة هيأته ..

وكانه فهم ما يحول فى خاطرها ، فابتسم المسكين واعتذر لأنه أهمل قيافته لما تقدم فى السن . سأها عما إذا كانت سعيدة . ونصحها أن تحب زوجها . ثم ، بعد أن قبلها بحنان ، نزل الدرج بخفة وقد أعشت عيناه ، واستقامت ذقته ، وغاصت رأسه تحت قبعته الخالدة ..

وقد لاح لهيلين أن والدها غضب من زوجها .. فتسهم عقلها نحو الأخير بأفكار سيئة مجرد التليخ الذى أمكنها أن تفهم منه دون أن تتلقى شرحا ..

ولما كانت نفسها تفيض عطفًا وحنانًا ، فقد وجهت ذلك نحو ابن أخت زوجها جورج الذى كان جميلًا ظريفًا .. ولد جورج هاثيلان فى أفرانش ونشأ على الديانة الكاثوليكية

وسط المستعمرة الانكليزية الصغيرة القائمة في هذه المدينة
وقد فقد أبويه وألحقه عمه - الوصى عليه بالقسم الخارجى بكلي
ستانسلاس . وكانت تبدى له هيلين أظرف الملاحظات وأغيا
النصائح ليصير أسمى مخلوق .

وقد دعتة يترك فروضه هذا المساء ليذهب إلى الممثل .
ولقد أصبحت أيامها مريرة ، واعتراها الملل ، فهي تبكى
وتتمنى أن تعيش ولو في أحقر كوخ بجانب والدها .
هرعت خفية ، إلى رجل الاعمال ، الذى يقطن فى شارع
روما فى الطابق الرابع من منزل حديث البناء ، وقد انتعشت
من هذا الشوط الذى قطعته فى العربة ، ولكنها كانت ترتجف
وأرخت نقابها كأنها ذاهبة إلى موعد غرامى !

وكان أثاث والدها أشبه شئ بأثاث طفل صغير . فترى
غلايينه هنا وهناك ، وسط الأوراق المبعثرة على المناضد . وانعد
النظام فى هته الغرفة . قبلت هيلين والدها على خديه ، ودارت
بنظرها فى زاوية الغرفة ، وحينما لمحت بعض أشياء لسيدة منهم
مظلة وبعض أزهار البنفسج ، تظاهرت بأنها لم تر شيئاً . وضمت
شفيتها حذراً من الضحك ولكن عيناها كانت تضحك . جلس

والدها أمامها لا ينطق من الحب والاعجاب .
عبثت بالإوراق التي أمامها ، وأكلت من الحلوى ماشاءت ،
وشربت وضحكت ثم تأهبت للرحيل
أصلح الوالد طاقته التي اختل نظامها من التقييل ثم همس
في أذنها :

— أحي زوجك ، أحيه من كل قلبك
وما أن استوت في العربة ، حتى تخيلت زوجها أمامها مضجعا
وقد بدت عيناه الباهتان ، وخداه المشربان حمرة ، واللذان
يشبهان قطعة اللحم التي لم يتقن طهيها ، وقد ابتسمت دلالة على
الاستهجان ، وهنا تعود بها الذاكرة الى صورة قديمة في طوايا
نفسها ، في ذلك العالم القديم المليء بذكرياته ،
ها هو ذا وجه كاد أن يصبح منسياً . . ولكنه محبوب .
عزيز لديها . . وجه غائب لم يؤوب ؟ أنه مائل في ذاكرتها ،
لقد ذهب بعيدا ، بعيدا جدا ، دون أن يؤوب البتة ؟
كانت يوما جائئة على ركبتيها ، تنظر من زجاج النافذة بملل وإذا
بوصيفتها تدفع لها بطاقة شخص يطلب مقابلتها . . وما أن نظرت
إليها حتى نهضت بسرعة وأصلحت خصلات شعرها وهندامها ثم
دخلت إلى ردهة الاستقبال . وقد تناولت رقبتها كالأوزة الكبيرة .

٥

وقف رينيه لونيهار أمامها وقد أصفر لونه عن ذى بدء .
وامتلاء خديه ، ولمعت عيناه ولكن فى شىء من الألم . وبدأت
عليه آثار الحمى التى أصيب بها فى الأقطار الحارة . واحتفظ
بنظراته التى فيها شىء من التحدى والجرأة . وفه الكبير الذى يدل
على العطف قالت له :

— هأنت ترى أن الأرض صغيرة . وأن الإنسان فى مكتته
أن يطوفها . لست بالمشدوهة لأنتى رأيتك ثانيا ولكنى سعيدة .
كان كل قد اعتزل عن الآخر مدة كبيرة من الزمن وعاش
كل حياة بجهولة عن الآخر . لذا فأنهما يجدان فى التعارف من
جديد . وقد بدأت هى بواجبها كصاحبة المنزل ثم تحركت بدافع
خفى فألقت إليه الكلمة الأولى التى مصدرها القلب :

— لقد كنا نفكر فىك لماما

هنا انطلق رينيه الى الذكريات القديمة ، فتكلم عن أكواب
الشاي فى شارع نيث دى بيتيت شامب ، ونزه ميدون ؛ الأتواب
الطبيعية الحمراء والبيضاء ، صديرية مسيو فيليير .

سأله عما إذا كان يضع الضفادع في جيوبه ؟
ومضت برهة من الزمن . انتقل بعدها إلى سرد رحلاته
وما كان من أمرها . وهي تحملق فيه بعينها الجميلتين . وسأله عما
سيفعله . فقال أنه تعب من جراء الخدمة الطبية العسكرية
وسيستقيل ، ويشخص إل الضياع حيث يتمتع بالطبيعة ويمتنع
حرقة الطب . فأذا قدر له أن يلتقى يوما بفتاة ريفية تغنى بترية
صغار الدجاج تحت رعايته ، فيسقتن بها . قالت بحرارة . -

— آه ! تريد الزواج ؟

ولكنها فهمت من أجابته أنه لا ينبغي ذلك ، لأن قلبه حزين
وبه جرح لم ينثل . وقد تكون ذكرى مؤلمة !

عاد جورج من الكلية فرمى بنفسه بين الاثنين حاملا كتبه
المدرسية ونظر إلى الضيف الجديد نظراته البريئة وابتدأ في
اللعب ، فلم تطرده هيلين ولكنها أمرته أن يلزم السكون
ويؤدى فروضه . . وعاد الطبيب يقص أقصوصاته . فأطبق
الولد قاموسه محدثا ضخمة كبيرة ، وأخذ يسحق مقلته بأسنانه
ورفع رأسه حينما سمعه يقص قصة حيوانات البحر الحية التي
أكلها بحار فوق سفينته .

جاءت الوصيفة تقول أن سيدها ، الذى يتالم ، يرجو أن يرى
السيدة قرية منه .

كانت غرفة مسيو هاثيلان كبيرة وملائى بالأشياء الغريبة
فى أوضاع خاصة . هناك منضدة مكسوة الزجاج صفت عليها
الزجاجات وعليها العناوين ، تاج ، جوردين ، سيموئس ،
أورتاس ، تير ، أهيو ، الخ . . ويحتفظ بنصف زجاجة من مياه
الأنهار التى عبرها ثم منضدة زجاجية أخرى ، تحوى نماذج لكل
أنواع الرخام الموجودة فى العالم . . وهناك دولاب هو مجموعة
ذكريات تاريخية . يحوى أحجار من سجن تاس^(١) ، من منزل
شاكسير الذى ولد فيه ، من كوخ جان دارك ، من مقبرة
هيلوئيس^(٢) ، بعض أوراق من شجرة الصفصاف الباكية
لسانت هيلين ، قطعة من أشعار لاسنير فى السجن الشهير
بالكونسيرج ، صندوق ساعة سرق من التويلرى سنة ١٨٤٨ ،

(١) شاعر أيتالى كبير ولد فى سورت سنة (١٥٤٤ - ١٥٩٥)

(٢) من حفيدة فلبرت العالم الكبير فى قوانين السكينة ، ولدت فى بارى سنة
(١٦١٤ - ١١٠١) واشتهرت بجلاتها بيبير أبلارد للفيلسوف والمبرز فى
علم اللاهيات وقد اشتهر أيضا بمحادثته المفجعة .

ومشط كانت تملكه الأنسة راشيل^(١)، وزجاجة تحوى خصلة من الشعر لجوزيف سميث نبي المورمون^(٢)، هذا غير التذكارات الأخرى، وفي الغرفة مناضد كبيرة من الخشب الأبيض، وغيرها من صنع بعض الفنانين والكل مغطى بأغبر الأنسجة . وكانت تتصاعد من الغرفة رائحة العقاقير القوية . أما مسيو هاثيلان فقد استلقى على مقعد طويل قريبا من مضجعه الحديدي وألقى غطاء من أغطية السفر على قدميه في حين اشربت ديباجته حمرة، واطلمت عيناه . أخذ يدي زوجته بحنان هؤلاء القوم الذين يشعرون بأن كل ما لهم قد ولى . أسر لها أنه يحبها ، وأنه يشعر من جهتها بالامتنان ثم أنه يشعر بخطر المرض الذي يرجو الشفاء منه . أنه يثق بدواءه الشافي الذي يجيد تحضيره جرول . وكان ينقطع عن الحديث بسبب الدوار الذي يعتريه . استأنف الحديث : يجب أن اعترف لك يا هيلين أنه قد مرت على دقائق أخطأت فيها . وهذا يرجع لمرضى . إن كل ما عملته في هذه الدقائق يجب ان تطوى صفحته .

(١) ممثلة فريدة نبقت في فن التراجيدي . ولدت في سويسرا (١٨٢٠ - ١٨٥٨)

(٢) طائفة في الولايات المتحدة تكون ولاية صغيرة على شاطئ البحيرة المالحة

ومن حسن الحظ أن تكون أعمالي منظمة . وقد أودعت الوصية عند مسجل العقود . . . وهنا قال لها أنه يترك لها حق الانتفاع بثروته التي يجب أن تؤول الى جورج هافيلان . وترك لخادمه جرول جزءا وقد أخبره بذلك . ضغط على يدي زوجته من جديد ونظر إليها نظرتة الغريبة التي تشع ألما ثم رجاها أن تصغى إلى ما يأتي : -

— إذا ما انتقلت أنا من هذا العالم وأردت أنت أن تسدى إلى جيلا أبخى ، يا عزيزتى هيلين ، أبخى عن صامويل أوار واذكرى له شعورى ورغباتى الأخيرة وأستحلفك بأسم سيدنا المسيح الذى سيبعث الأموات إلى حياة جديدة ، ألا تهمل أعطاء سليل دافيد أوار الأخير المبلغ الذى أوصيت به . أنه على قيد الحياة . وقد رأيته فى بعض الليالى . أتنى أعرفه لو حضر . سوف يحضر .

شخص المريض يبصره إلى ستارة قائمة تمتد على أحد الابواب ومد يده التى ترتعش وصاح :

— هناك ، هناك ، أمام هذا الباب ، هذا هو ، هذا هو

سام أوار

هل ترين جيذا هته العلامة التى يحملها فى رقبته ، تحت قميصه
البحرى ، هته هي علامة حمراء ، من أثر جده ، الشيخ داويد ...
سام ! سام ! أوه ! يا ألهى !

• سقط على مقعده الطويل ونام نوما خفيفا . لم تعرف هيلين
ماذا تفعل وسدرت بين الأغصان : نادى جرول الذى أبعداها
بخشونة واستولى على المريض .

وفى المساء إعتراها الأرق ، فرأت على ضوء القمر ، زوجها
ينزل من نافذة غرفته ، وقد التف فى دثار من الصوف ويسير
إلى اليمين قاصدا عينا قريبة من الأسطبل ، ذهل وجهها خلف
زجاج النافذة . وأحست بألم فى جذور شعرها . فلم تقو على
الحركة أو الصياح . رأت جرول يخرج وهو نصف عار من
وكره الذى ينام فيه ، متبعا سيده . رأت زوجها يطيل النظر
إلى قاع البئر ثم رفع رأسه ومد يده كمن يبحث من أى جهة
تجىء الريح . ثم دخل من نافذة غرفته . ورأت جرول يهزم منكبها
ويدخل إلى منامته وارتسمت عليه علامات الشر بأجلى مظاهرها
وظهرت مادام جرول برهة . ولكن هيلين سمعت جرول يضربها
بعد دخولها غرفته . ولقد أصبح مسيو هايلان يغط فى نوم

عميق ، يسير ، يتكلم ، يتحرك وهو نائم !

في الغداة وجدت هيلين زوجها ذا نشاط . يعمل في سكون في الكتابة على الأحجار الصغيرة المأخوذة من بعض الآثار الشهيرة . كتب على وريقات عليها أثر كتابة ممحاة . هته الكلمات : كوليزي^(١) ، كاتا كومب^(٢) ، مقبرة سيسليا^(٣) . ميتيلا . وكانت عيناه ذوا الزرقة الباهته ، لاتدلان على شيء . ولكن هيلين لم تظن أن بالآ إليه ، فأرادت أن تظل قريبة منه ، ووعدته أن تسهر عليها بنفسها وأن تدعو الأطباء رغما عن أنه لا يريد . ودخل جرجول حاملا زجاجة وكوبة . ملاء الكوبة من الشراب

(١) مدرج هائل في روما بديء في بنائه أيام الإمبراطور الروماني فيسبازيان وتم في عصر ولده نيتوس . ويحوى ثمانون صفا حجريا .. ويتسع لثمانون ألف من النظارة . وكان يجري فيه قتال الأبطال والحيوانات وكان الرومانيون يقبلون على هذه الرياضة الدموية ويحضرها الإمبراطور وعمر المقاتلون أمامه . وم يصيحون « السلام يا قيصر ، أن الذين سيموتون يحبونك »

(٢) مقابر تحت الأرض ويطلق عليها جبانات المغابر والشهيرة منها ، وهي في الأصل كهف يستخرج منها حجر البناء في روما ونابل وسراكيور وباري . وقد اشتهرت الأولى لأنها استعملت ملجأ للتصاري في عصر اضطهاد النصرانية . وقد وجد فيها نقوش ورسوم آية في الفن وغاية في الأهمية بالنسبة لتاريخ النصرانية .

(٣) لمله يربد ميتيلوس الروماني الذي ضرب القرمطين في سيسليا .

سم قدمه إلى سيده وهو يحرق في هيلين وقد صوب إليها نظرات
هى غاية في القحة والتحدى حتى انصبغت بلون أرجوانى .

وما أن شرب مسيو هافيلان الدواء حتى شعر الدوخة
وشلت أعصابه . واتسعت حدقيه بشكل غير مألوف . ومنذ
ذلك اليوم وهيلين تحس أمرا جديدا . وساورها القلق . وذات
مساء ، نحو الخامسة ، لاحظت آثار حذاء قد قويت نعلاه بالحديد
على بساط غرفتها . وكان الأثر يدل على أن صاحبه قطع أنحاء
الغرفة في خط معوج من الباب الخارجى إلى غرفة الزينة . وهذه
الآثار خفيفة لم تكن لتراها لولا ضوء الشمس ، التى أضاءت
فى هذه اللحظة فأظهرت آثار التراب الرمادى على البساط النفيس
وقد ذعرت فنادت وصيفتها وافقدتا غرفة الزينة . ولكن كل
شئ على ما هو . أخذت تجهد نفسها فى تعرف هته الآثار ..
وأتعبها التحقيق دون جدوى .

عاد رينيه لونجمار ، وأخذت هيلين ، التى أتقنت زيتنها
كما يريد ، تشكو اليه بؤسها وتعس حياتها وآلام زوجها . وقد
شعرت بعاطفة الحب نحوه وتمنت لو تهوى على هذا الصدر
الكبير الحار فبكى وتستعطف . فى حين ظل رينيه صامتا أمامها .

وهو يجتهد ألا يضيع ثقتها فيه ، إنه يحبها باحترام . لقد كانت
شعر حياته الصيانية .

وقد عادت له أخلاقه القديمة .

فى نفسه مكان مرتفع عظيم لمخلوق سامى . لم يجد من يستحق
هذا المكان إلا هيلين ، وهته كانت تعب ، ضعيفة ، منغصة من
هذا الزواج الخالى من الحب . تلتزم جادة العقل ، وتمثل فيها
الحشمة والوقار أمامه .

حدثته عن مرض زوجها . هز رينيه رأسه ولم يعرف ماذا
يقول . ولكن أبدى احتمال سوء المعالجة . ولم يشخص الجراح
المساعد المرض حسب سيره الطبيعى ، وكما شرحوا له عوارضه .
وقد عزى اتساع الحدقتين إلى الأسراف فى تعاطى الدواء
المركب من النبات المسمى بحشيشة الحمرة . وكان يجب عليه
لمعالجة داء المفاصل أن يستعمل ملح كلورات هذا النبات . ثم
شرح لها رينيه خطأ هته المعالجة . ولنا جددت عزمها على
استدعاء الأطباء . والاشراف على المريض بنفسها .

وفى الغداة وجدته فى الهري ينعم قطعة من الخشب بعناية
كبيرة ، فقد كان نجاراً ماهراً كما هو كينائى . لما أن رآته هادئاً ،

يتمتع بالراحة ، خيل لها أنها حالة ، وقد حدثها عن الطاهي ،
الذي طرده من خدمته لأنه سارق بعد أن اكتشف جرمه
جروول . وكان يضع آله التي يستعملها في تنعيم الخشب (الفارة)
على طاولة التجارة ثم يزيل برشاقة النشارة التي تعلق بأطراف
معطف زوجته الذي ترتديه في الصباح . وقد تجلت عيناه جيلتان
يحتفظان بلونهما الطبيعي .

فكرت في رينيه ونشاطه وقدرته على بعث السرور في
النفس . فهو كالكتاب الذي أحكت عباراته ، ثم نفسه المليئة
بروح الشباب وقوته . وقد امتلأ قلبها كراهية وهي تتأمل هذا
الشيخ . . جاء جروول في الساعة المعتادة يحمل الدواء لسيدة .
ولما رأى هيلين في هذا المكان الذي لم تمسه قدمها من قبل ،
دحرج عينيه ، عينا القطعة الزائغة تتجلى فيها الحقد الكمين . ثم .
ككل المرات عندما ابتدأ مسيو هاثيلان يتذوق شرابه ،
رمقها جروول بنظراته الوقحة ، وشفاته تتحركان عن غيظ .
مدت ذراعها إلى الأمام كيما تنزع هته الكوبة من بين شفتي
الشيخ ولكن جروول همس في أذنها بلهجة سوقية آمرة :

— لا تفعل ذلك يا بنية !

فسكنت خجلة وقد تحولت يضاء كالثلج . شرب مسيو
هافيلان الدواء وجفف شفتاه . ونزلت التعسة الدرج وهى
تتخبط وتضرب أخماسا لأسداس . . وقد أخرجها جنبها ،
وعولت على عدم الظهور أمام زوجها ولكنها علمت فى المساء
من وصيفتها بأنه أصيب بألم شديد . وقد خلد إلى السكون حتى
أنها ظنته قد قضى . . فتهدت عن قلب مكوم . . وقالت :
« أنه لا يزال حيا ، لا يزال فى الوقت فسحة ، فلا تكلم . .
لن أكون شريكة فى الجريمة لهذا . . . »

وفى احتياج شعورها هذا ، تناولت عشاها ، ثم استسلمت
للكرى ، وهى تحلم فى رينيه الذى ملك عليها مشاعرها واستحوذ
على لبها ونهاها . وكانت رأسها قد اشتعلت واصطكت أسنانها ،
ثم لم تدر بعد ذلك ما الذى آلت إليه . رأت وجوها مخيفة تمر
بها ولم يك ثمة وقت يسمح بتعرفها . أين هى إذا ؟ وماذا يريد
منها هذا الجمهور الغريب الذى ارتدى جميع أنواع أردية الملاحى ؟
وشعرت بحر شديد يضايقها . هذا هو قط احمر يتغير لونه .
ضمت ذراعاها وثنت ركباتها . هاهى راهبة قد أتت تضع عليها

أغطية . ولكن لم هذا ؟ ثم هؤلاء اثنين أو ثلاث يمنعونها من الخروج

كان عليها أن تعمل شيئا ثقيلا . ولكنها لم تعلم شيئا أكثر من هذا . . . صاحت . « أوه ! رأسي ! رأسي المسكينة ! ، أحست بألم في مخها فهي تبحث عن حائط ، حائط من حديد تسحق به هذا المخ وتستريح . « أوه ! يجب أن تسرع فتعمل مصرفا لتصريف الماء الذي يغلي هناك . قال صوت مجهول : « الجليد ! الجليد ! أيضاً ، ولكنها لم تر جليداً ، وقد ضلت كما كانت وسط الرمال المشتعلة وعلى شاطئ من النحاس الذائب . صاحت : « رينيه ! رينيه ! خذني إلى غابات ميدون ! هل نسيت وقت أن كنت تصنع لي باقات الورد ؟ ، ثم هي تغفو فتحلم أنها عادت صغيرة تسمع الأقاصيص وتعاليم مسيحية لسيدة من سيدات الدير : « لا يمكن ، استذكار دروسي ، يا سيدتي ، أتني أشعر بألم في رأسي . إذهبي بي إلى المنزل . أريد رؤية والدي . . . »

وفي ذات يوم ، كانت في « ضجعتها وقد خارت قواها ، وشعرت بجوع . فعلمت من المتدينة التي تسهر عليها ، أنها قد اجتازت مرضا خطيرا استمر ثلاثة أسابيع وأنها أُنقذت . وبعد

بجهود عظيم بذلته في الرجوع إلى ذكرياتها تسألت :- وزوجى ؟
فقال المتدنية ألا تعلق فهو سائر إلى التحسن وقد اتعشت
هيلين ونقمت ولكنها لاتزال تحس آلام الرأس وققدان
الذاكرة اللذان يعقبان عادة الحى العقلية . ولم يكن يشغلها إلا .
شعور واحد هو خوفها من رؤية زوجها . وقد دق قلبها حينما
سمعت أن مسيو هاثيلان قدنقه وسيحضر ليراها فى غرفتها . نظر
إليها بعطف وحنان . وبثها لواعج حبه . وللرة الأولى ، ارتسمت
على هذا الوجه الغليظ ابتسامة . وقد كانت حقا ابتسامة داخلية
تعبّر عن إخلاص . الأمر الذى جعلها تعطف عليه فبكت
وداعبت الشيخ مداعبة الأطفال . لفّت ذراعها حول عنقه
ولكنه كان قد استقام فبذلت مجهودا وإذا ساقها فكرها إلى
جرول ودواؤه . فأخذت يدا زوجها وقالت بصوت يفيض حنانا .
— إذا كنت تحبى ، إذا كنت تريد أن تبعد عن كلانا شبح
الموت المخيف ، أطلب منك أن تبعد خادمك اليوم وإلى الأبد
أن مافعله . . . هذا مريع . . . لا يمكننى أن أقوله . . . أبعده !
أبعده ! ، - ثم اختفت وهى غارقة فى بحر من الدموع .

وتذكر مسيو هاثيلان أن هيلين كانت تمقت هذا الخادم من

قبل . ولم شكته إليه فظن أن ذلك دون أى سبب ، ولكنه رأى
الآن أنه من الضروري أن يضحى خادمة فى سبيلها

أمر أن يؤتى إليه بجرول فى المعتمل حيث قال له :

— جرول ، يجب أن تنفصل عنا . أنتى راض عنك ، وقد
كنت أود أن تظل إلى جانبى حتى وفاتى ، ولكن أصبح وجودك
فى هذا المنزل محالاً لأسباب لاحتل لذكرها ! لن أغير شيئاً من
جهة مكافأتك . يجب أن تغادر المنزل يوم الجمعة وسأقوم بأود
حياتك وسوف أعتنى بامرأتك التى أبقياها فى خدمتى وأرجو أن
أوفق فى العثور على صامويل أوار .

ليس عندى ما أقوله لك أكثر من هذا .

لم يجب جرول فأنحنى وخرج .

٦

إذا .. أبعد جرجول يوم الجمعة . فى الغداة شعر مسيو هايفلان بتحسّن لم يشعر به منذ شهور كثيرة . فقام فى هذا اليوم بنزهة فى غابات بولونيا تصحبه هيلين . التى تعافت .

سبب لهما دوى العربى ومداعبة الهواء تعباً لذيذاً وقد تجلّت على هيلين مظاهره . أحست فى هذه اللحظة بقلها الضعيف يخفق بحب زوجها العجوز . وتحت تأثير المرض ، فى لحظة مريضة ، أحبّت زوجها الجالس بجانبها تغوص سيقانهم تحت فراغ واحد .

أخذت تمتع نظرها بالأشجار ، مصاييح الشارع ، المارة التى تخلفهم العربى ، منازل شارع «شامب إليس» ، بحوانيتها التى تصنع فيها العربات والممرات المفروشه بالرمل . حيث جثمت الخيل تحت الأقواس ، فى الظلال ، وأمسك السائسين الجائمين بقيادها . ثم لاح قوس النصر مرتدياً حلته الدائريه من أنوار الطبيعة . وإلى الشمال الشارع الذى يؤدى إلى الغابات ، وقد ظهرت على ناصيته الحدائق الأنكليزية . . وإلى اليمين كانت الفرسان تنخطر

في الممرات الرملية ، تسطع عليها شمس الربيع الفاخرة . وانتشر غبار أثارته عربة مقفلة ذات أربع مقاعد .. هذه هي فتاة شقراء جميلة تقود عربتها وتثير زوبعة في الشارع . وجلس خلفها سائس ضامًا ذراعيه إلى صدره .. وهب نسيم الغابات اللطيف على العربة . وأخذت العربات تتلى ، وقد أطلت منها وجوه مزودة بأنواع المساحيق ، وكانت ترتفع التحيات من عربة إلى أخرى . ويقترب الفرسان وهم يتسمون من السيدات اللاتي احتجبن تحت غطاء عرباتهن المظلمة . ومر من الطريق المقابل عرس لبعض العمال سائرين على أقدامهم . وجدت هيلين أن زوجها على غلظة ليست مقبولة . لقد عهدته رجلا هادئا رزينا .. أن سكون هذا الرجل ، وهدوء وجهه ، وبساطة أفكاره ، كل هذا قد حاز أعجابها الآن . أنها تجله وتبجله منذ أن أنقذته . ولكنها من جهة أخرى لاتزال تتذوق السعادة بشيء من الضعف والتعب الذي يتلاشى . كانت تنكش في سرور الهرة التي تحس البرد .

غادروا العربة قريبا من الشلال ، إلى حيث دخلوا مقهى كما يتناولوا شيتا من اللبن . إلى يمينها وشمالها ، كانت الموائد

تضم إلى جوانبها أغمار الشيوخ يهمسون وقد بدت نبراتهم نسائية . وجلس أمامها ثلاث شبان يتبادلون الحديث ، بصوت جلي . ولم تعرف من هم هؤلاء الجالسين أمامها . ولكنها عرفت هذا الذي أولاهما ظهره . وبالرغم من أن الخادم وقف حائلا بينهما إلا أنها عرفت من نظرة واحدة إلى ظهره . شعرت بآلام شديدة في المعدة ، وجفاف في حلقها ، والتهاب خديها . ولكنها في الوقت الذي تتألم فيه تشعر بفرح .

كان هذا الجالس قريبا . والذي سبب لها هته الآلام هو لونجمار ولم يك يدرك أنها على مقربة منه . لهذا فهو منهمك في حديثه . وقد ضمنه آرائه الغريبة كماداته . قال لأصدقائه :

— ان النطاسي الشريف الوحيد الذي أجله ، هو يينيل . أنه لم يعط قط دواء لزبائنه ، خوفا من تعبه . أو أن يعرقل سير المرض . وقد ابتهج عند ما أمكنه أن يشفى بطريقته جرحا امتنع عن مداواته بالعقاقير . وأمام هذا النجاح الباهر الذي حازه في هذا الجرح . ظل نديها ، محترماً . فباله من طبيب عظيم ! تلاشى صوت رينه بين صوت الضحك الذي ارتفع وقتئذ . وزاد اللفظ . واستمر الثلاثة في الحديث . أما هيلين فقد أحست

طراوة في حلقها ، وامتلات آذانها بالأصوات . ولم تكن عيناها
أترى شيئا آخر . وتندى جبينها بالعرق . ولما أن رآها زوجها
على هذا الحال سألها عما إذا كانت تعبئة وهل تريد أن تعاود
الدخول ، ولكنها لم تكذب تلتفت إليه حتى وجدته في حالة
غريبة . فقد تقلص وجهه ، وبهتت عيناها ، فتأهبوا للرحيل ، وهنا
رآهم لو نجمار ، وقد تبادلا نظرات قوية كادت أن تجذب كلا
نحو الآخر .

في الغداة ، لم يتمكن الشيخ من مغادرة غرفته ، وظهرت
أعراض المرض المتقطع مرة أخرى . وبعد بضعة أيام كانت
حالته تنذر بالخطر ، وفي صباح الجمعة دعت هيلين طبيباً . وفي
هذا اليوم كانت هيئة المريض مخيفة . تضخمت العروق .
وخرجت العينان من تجويفهما . وهذى هذيانا غريباً . وأوصى
الدكتور هرسان ، الذي كان يعيده دواءً ضد التشنج ولكن لم
يفد شيئاً . فقد شخص جرحاً واسعاً عميقاً وسط الأعصاب .
وقد خاف أن تحدث الحاتمة المفزعة بعد حضوره توا . فصرح
أن الحالة سيئة وطلب عقد مجمع من الأطباء في المساء للمشاورة .
في هذه اللحظة أتم جرجول حزم أمتعته بواسطة امرأته ، ثم

استقل مركبة للكرام تاركا القصر ، تنفيذا للأمر الذى تلقاه ..
أقامت هيلين قريبا من المريض . مستلقية بهيئة مخيفة . ولم
تجسر أن تنظر إليه ، ثم ، على حين غرة . حملت فيه بشكل
غريب ، فحسته بكل عينيها وأرادت أن تراه ، تراه إلى النهاية
حتى المات .

كان التعس يتصارع بين خادمين ، الذين بذلا مجهودا كبيرا
فى أبقائه تحت الفراش . ذكر امرأته وصامويل أوار . وبدى
صوته ، الذى تغيرت نغماته ، جديدا ، مرعبا . ولفظ أسم هيلين
بنغمة مهدجة تفيض حنانا . وصرخ صرخة مرعبة ، ثم ضحك
بعتوه ولكنه كان مفعجا . حتى أن الموازنة لمتعذرة . فأن أرجح
الناس عقلا لا يمكنه أن يقارن بين ألفاظ الحنان والحب
بتلك التى قصد بها التهم المخيف . ولا تسلم عن الرعب
الذى سببه هذا المنظر لهيلين . فقد أحست كما لو أن سلوكا من
المعدن المحمى فى النار تسرى من قفاها إلى عقبها . وأن أحشاها
تمزق .. أصغت إلى صوت زوجها بانتباه .. أن عذابها يزيد
لأنها لا تستطيع أن تميز نبراتة . ولو أنها سمعته فى هذه اللحظة
يصب اللعنات بلسانه وأصبعه لحف عذابها .

فى العاشرة مساء اجتمع حوله الاطباء هرسان ، جيران ،
وبلدك وقد قام بحركة عظيمة من كل أعصابه . ثم هدأ .

وكانت هياته كالنائم . وقد ابتدأت هيلين تحس عذابا جديدا ،
والما شديداً ، بل أفضع الآلام . لقد أحست أنها ستفقد الصداقة
والأخلاص كامنين فى شخص هذا الرجل الذى أحبها . شعرت
بالأسى يطرُق قلبها من أجله . ذلك الأسى الذى يجعلها خائفة
كالخسيسة المناققة . أفليست هى التى ٤٠٠ .

استمر تطور المرض ، وأصبح المريض فى حالة تضايق منها
من يقومون بخدمته - إذا استثنينا الأطباء - وتدلّت يدها
العظمتان فوق الغطاء فى حالة برودة وضعف . أمسك الطبيب
هرسان قبضة المريض اليسرى وقد لاحظ ضعف النبض ،
وبرودة الأطراف . تدلى الأنف . ففرت العينان اللتان كان
يديهما حوله يريد أن يرى ويعرف كل ما حوله مرة أخرى .
ثم أضع رأسه إلى الخلف وصرخ ثلاثا وخلد إلى السكون .
وأعلن الطبيب هرسان أن كل شىء قد انتهى .

سمعت هيلين ، التى كانت إلى اليمين تتوجع ، بهذا النزغ
الآخر . أنه مات اشعرت أن الأرض قد فتحت تحتها ، وأنها

قد سحقت . وتمنت لو قد قضت هي الأخرى . يا ليتها لم تجيء
هذا العالم . لم تساعدوا قواها نفرت مغشياً عليها .
التقى الأطباء جيران وبلدك في الغرفة الخارجية بسيد قصير
ذالحية كثة وعوينات من الصدف . . وضع يده في أيديهم
وقال بصوت حزين :

« أيها السادة ، لقد كانت مجهوداتكم عظيمة ، إن علم البشر
مهما تقدم فإنه محدود . وأن أمراء العلم لا يستطيعوا دائماً أن
يسيطروا على الطبيعة . أتني ممن يحملون شرف معرفة الفقيده .
سأوضح لكم الأمر . مسيو فيلير دى سيساك لن ينسى ما بذلتموه
من جهد في سبيل إنقاذ صهره العظيم .

ثم ذهب إلى المكتب بخطائفة بطيئة ليتناول أكلة خفيفة .
ذهبت مادام جرول الغارقة في دموعها وأحزانها إلى غرفتها
حيث أخذت تصيح بصوت يشبه الدجاجة تنادى أبنائها .

أستدعى الطبيب هرسان إلى مادام هافيلان التي تستدعى
حالتها بعض العناية . لما رأت هذا الرجل الكبير الأسود الذي
لم تعرفه يلج غرفتها تولاها رعب شديد سبب لها هذياناً فضمت
ذراعها وصاحت :

— لست أنا ! أوكد لك أنه لست أنا !

V

نشط مسيو فيلير كثيراً بعد موت صهره . كان يُرى في ثيابه السوداء ، ذى الدلالة على الحداد ، مع ابن أخت المتوفى ، وكان يسير ببطأ في الشوارع الخارجية لكي يصل إلى مقبرة موتبارناس حيث اشترى مسيو هاثيلان له ولزوجته قطعة كبيرة لكي تكون مدفن لهما .

ولما كان مسيو فيلير لم يتعود إلا نادراً على أن يصحو من نومه في الصباح فقد بدى باهت اللون ، يحمل وجهه آثار الأرق . واحمرت عيناه وانتفخت مقلته و كان منظرهما من خلف العوينات ذات الأصداف يكسب وجهه هيئة التعب والحزن وقد ساعده ثقل جسمه على حفظ توازنه في السير . فهو يسير متثاقلاً . ولما كانت الثروة قد غادت إليه من هذا الطريق الغريب . فقد تغيرت قبعته التي علقها في قصر هاثيلان . وكانت الجديدة زاهية ذات حلية يضاء ناصعة . أما حذاء مسيو فيلير فلم يعد يحدث هته الحركة القديمة المعتادة . بل كان يخرج كل خطوة صوتاً كما لو كانت تقطنه الأرواح .

أمام البناء الذى شيد على طراز الفريد الثانى عشر ، والذى يرى العمال وهم ينزلون من النعش الخشبي، ويلهثون تعباً . ويصقون فى أيديهم التى التهبّت من أثر الجبال . وقف مسيو فيلير عديم الحركة يراعى السماء من خلف عويناته بشيء من الروحانية . فكان الناظر اليه يدرك أن أفكاره ليست محصورة إلى أبواب المقبرة البرنزىة ، بل أنه يخلق فى قطر أثري حيث أجواء الفلسفة السامية . كما أنه يخلق أيضاً فى عالم الخيال اللانهائى لدرجة أنسته أنه فى عالم الوجود لولا أن سعالاً خفيفاً ذكره بأنه على قيد الحياة وأن صدره ما زال يخفق بها . ووقف خلفه نفر من الانكليز . أطلقوا شعورهم . على شيء كثير من الضخامة ، يرتدون حلالاً أنيقة . . ثم رجلان يتهامسان جانباً وهؤلاء من الذين يختلفون مع مسيو فيلير إلى مائدة واحدة ومن المترددين على منتدى كلبار حيث يتبارون مع مسيو فيلير فى البليارد والدومينو ، كذا جمع الغاشية فى إحدى الممرات الخلفية فى جوانب المقبرة يرفلون فى ملابسهم ، والطهاة فى قلنسواتهم ذى الأشرطة ، وكانت السراويل تمتد إلى شيء كثير فوق الأحذية . وبعد دفن الجثة ، تقبل مسيو فيلير العزاء من جمهور المشيعين ،

بهية الرجل الشجاع ، الذى أصابته كارثة ، هلع لها قلبه ، وطار
لبه ، ولكنه يحاول أن يحكم شجاعته على عاطفته ، فهو يشكر
الأشخاص الذين جاءوا يؤدون واجبهم الأخير باظهار شعورهم
نحو الراحل الكريم . ولقد كان يكرر النظر اليهم لأن أحداً منهم
لم يتمكن هو من التعرف عليه . ضغط على يد كل منهم بجلد يعبر
عن قوله : « أشكركم ! أشكركم ! سأكون جلدأ ! سأتأسى ! » ولما
جاء دور رفيقا المتدى ، إقتصر على لمس أطراف أصابعهم . وقد
أرعى أهدابه ، وخاف أن يلسوا أكتافه قائلين : « أيها العجوز
المسكين ... »

كرر لهم شكره مرات عديدة . ثم وجه هته العبارات أخيرا
إلى قوم كانوا قادمين لدفن جثة قاض وقد حاروا من أمره .
لا يعرفون ماذا يريد منهم هذا الرجل ذى الرداء الأسود . وكما
أنه من المتعذر أن يميز بين أصدقاء صهره وبين الزائرين الآخرين
الذين جاءوا يشيعون ميتاً آخر ، فقد قام باستقبال كل المعزين
الذين حضروا فى هذا اليوم سواء أكانوا قادمين لصهره أو
لأشخاص آخرين فإنه اضطر لاستقبالهم جميعا وشكرهم .

ومن هذا اليوم لم يخلع حلتة السوداء ولا تنازل عن حياته

الحزينة . وصار تردده يومياً على منزل هاثيلان حيث يتناول
إفطاره وغذاه ثم يضع يده على رأس جودج ويصبح بين
الزفرات الحارة :

— هذا الولد هو تسليتي الوحيدة .

وفي مقهى كلبار ، حيث يلعب البليارد كل مساء ، يصرح :-
ليس الذى فقدته صهرا فحسب ، لقد كنت أنزله فى نفسى منزلة
الابن ، . وفى الحق أنه كان رجلا ظريفا .

سمعت جولى ، وصيفة مادام هاثيلان ، بنجر الصرخة
الغريبة التى صرختها سيدتها عند ما رأت الطبيب ، سمعت بهذا
من البقال والقصاب اللذان كانا يتحدثان سرا فى الغداة ، وراجت
الاشاعة أن أنكليزى دحى لاتور ، - موبورج قد مات مسموما
وأن زوجته اشتركت فى هذا الجرم . وفى بضعة أيام آخر انتشر
الخبر فى الاحياء المجاورة . وقد دهش الدكتور هرسان القاطن
فى شارع سان دومينيك ، عندما سمع امرأته فى يوم الاثنين
التالى تحدثه عن هته الاشاعة الدائرة ، عن هته الجريمة ، ولما

كان هرسان طبيباً عرضت له أحوال كثيرة كهذه وهو يعتمد على علمه وعقاقيره في أبحاثه ، لذا لم يثق بهذا الخبر واستحال أدانته مادام هاثيلان . وأجاب امرأته أن الطب لا يدع مجالاً للثروة هؤلاء الفضوليين . وقد وقع قراراً عن الوفاة مع زملائه ضمنوه وصف المرض الذي أصيب به مسيو هاثيلان . فهو لا يشك بتاتا في مادام هاثيلان ، وقد أهمل هذا الخبر .



ذهب لوجمار إلى مستشفى في الصباح لعادته ، ولكنه ،
لا انتشار وباء التيفوس ، تأخر عن مياعده كثيرا . فلم يذهب إلى
موتبارناس إلا بعد أن دفن مسيو هافيلان . وكل ما أمكنه أن
يراه من الاحتفال هو هيئة مسيو فيلير المحزنة ، وهو يستقل
عربة خارج المقبرة يجرها جوادان أسودان ، وضعتها تحت أمره
مصلحة الاحتفال بالموتى . عاد إلى الخلف أمام هذا المنظر ، ومر
بين الزهريات ، وأوانى الرمل التي تستعمل لمعرفة الوقت . والتي
نقشت في المدخل . وإذ بشاب قوى يمسك به . وصاح بصوت
جميل يشبه روبر (١) وهو يصيح « أيتها الراهبات اللاتي ... » .
هذا هو رفيق المدرسة ، بوتيني الذي اشتهر في المدرسة بعدم
مقدرته على فهم العلوم والآداب ، وهو يشغل وظيفة مخبر في

(١) له يريد Robert Macaire إحدى شخصيات نزل أدريه . وأدريه
هذا هو زعيم بروستانتي ولد قريبا من جرينوبل واشتهر بقساوته . وقد
أبرزته الشخصية الممثل الفرنسي الذائع الصيت فردريك ليمير (١٨٠٠ -
١٨٧٦) وشخصية روبرت مثال للنخسة .

صحيفة كبرى . وقد جاء ليسمع ثلاث خطب تلقى على مقبرة
أحد أعضاء المجمع . أمسك بذراع لونجمار وقال :

— يا عزيزى ، أنتى أدعوك لتناول العشاء معى ، هذا المساء ،

عند بريثا .

فى أثناء الطعام كان لونجمار ثائراً كمادته ، يعالج عدة مسائل
فى الحب والنساء محلاً ذلك تحليلاً علياً . متفكها فى الحديث
يجور الكلام إلى معانى أخرى . وكانوا يكرعون كؤوس
الشمبانيا التى هى من الضروريات لبوتيبى . وكان دائماً منهما
فى العمل لقد مضى ساعات فى القطرات هى أسعد أوقات حياته .
لقد حضر حفلات إزاحة الستار عن تماثيل فى جميع مدن فرنسا .
ولحق برئيس الجمهورية فى البلاد التى غمرها الفيضان . وحضر
أفراح الطبقة العليا . وسمع محاضرات عما يهيب الكرم من
الآفات . رأى كل شىء وهو أقل الناس رغبة فى الاستطلاع . ولم
تكن تعجبه فى هذا العالم إلا بقعة واحدة . هى شاتو حيث يملك
منزلاً صغيراً وقارباًهما كل ثروته . ولم يكن من عمل
إلا ويحتاجه .

وتحدث لونجمار عن مسيو هايلان فذكر أخلاقه ، موته ،

والاشاعات الأخيرة عن تسممه عن طريق الدواء .

نحو الساعة العاشرة ، قال بوتيتي :

— أنتى ذاهب إلى إدارة الجريدة يا عزيزى ، إنتظرنى برهة

فى منتدى سُئيد . أنتى مرتبط بموعد هناك

فى الساعة الحادية عشر كان الاثنان يدخان أمام مائدة من

الزئبق فى ضوء الشارع وعلى نور مصايحه .

قال بوتيتي : أنت ترى يا عزيزى أن مجذافا قصيراً ، يحسه

الإنسان فى يده ، قد أحذب طرفه ، يخترق الماء كالمديّة ...

وهنا دنى منه غلام من غلمان الشوارع وقال :

— أن هذا لن يكون الليلة .

فأعطاه بوتيتيه نقوداً وصرفه ، وكأّنه لم يرتاح الى هذا الخبر

فتمتم بكلمات ثم شرح الأمر لصديقه .

— هذا الغلام الذى يقطن الأزقة ، يعرف كيف تجرى

الأمور فى روكت . لقد جاء يخبرنى أن القاتل فى شارع

شاتو - دى - رنتير لن يعدم هذا المساء . وعلى ذكر هذا بما

أنك طيب ، حدثنى قليلاً عما إذا هناك ألم بعد فصل العنق ؟

فأجاب لونيهار !

— لاشئ أسهل من أن أشرح لك ذلك .
وابتداً في شروحاته :

— الحياة كائن كمي ، كما قال بوفون ^(١) ، تتأثر الزيادة أو النقصان . أما عقدة فلورين ^(٢) الحيويه فهي خطأ كبير . أصغ إلى جيداً . . . إذا أمكنني أن أقول مع بيثا ^(٣) ان الحياة هي مجموع قوى تقاوم عند الموت ، يجب أن أزيد أن هته القوى تقاوم أكثر أول أقل وقتاً طويلاً في القضاء الاخير . ويُنتج فصل الرأس حالة جديدة قوية وتلغى الحاسية بصفة نهائية ولكن الحياة العضيلة تستمر . يجب ألا نخلط

— لا . لا . افضل أن أحذرك . سيطول شرحك وأنا لم أفهم شيئاً البتة . ومن جهة أخرى . فأن العلم يبدو لي مبهماً . هناك بعض مسائل ، مثل هذه التي تتعلق بخلود النفس ، مثلاً ،

(١) عالم طبيعي وكاتب فرنسي مجيد من القرن الثامن عشر ، ولد في مونتبارد ، ومؤلف كتاب التاريخ الطبي (١٧٥٧ - ١٧٨٨)

(٢) باحث كبير في علم النفس ولد في موريلهان (١٧٩٤ - ١٨٦٧)

(٣) طبيب فرنسي شهير وحجة في علم التشريح ولد في تواريت وهو مؤلف « التشريح العام » (١٧٧١ - ١٨٠٢)

ومثل هذه التي تتعلق بوجود الآله ، اللتان هما من الصعوبة
بمكان للسرور أن الآله لم يحىء ذكره الآن . وعلى ذكر
ذلك ؟ ما رأيك في وفاة الأنكليزى الذى دفته اليوم ؟ يجب أن
نردد هذا الصوت ، على شريطة التتميق قليلا . ماذا تقول فى
ذلك ؟

٩

لما أن أمرُ جُروْل امرأته أن تعد له حقيبه . أسر إليها أنه راحل إلى أفرانْش حيث يباشر بعض الاعمال . وقد ورث حقلا صغيرا في مكان مجاور . ونزل في فندق في ضاحية ، أقيم على بابهِ تمثال للحصان الأحمر . وكان يُرى في الضياع ، يصب من القنينات ، التي يحملها ، العرق في أكواب القهوة ، وذلك جريه على العادة الشائعة في هاته البلد . وكان مرحا ، يتكلم بحزم ، وظهر بمظهر الأَدب .

وفي يوم الأربعاء استقل القطار إلى جرانْش عند ما ولى النهار ، في وقت مخيف ، هبت العاصفة ، كما يقول البحرّيون ، وأمطرت السماء ، وهبت ريح عاتية اقتلعت المصاييح التي سمع دويها وهي تكسر في الطرقات . أخذ يتخبط نحو القرية القديمة وعطف إلى شارع ضيق ، معوج ، مرتفع ، انتشرت فيه رائحة ماء المد . وكان يُسمع لقدمه الأيسر ، حينما يرفعها ليتبع بها الأخرى ، صوت المنجل في الحنطة ، كما أن جسمه ينحني إلى الأمام مع كل خطوة . أسرع الخطى في الظلام الدامس ، وكان

يدفق الماء من تحت قدميه وهو يدمدم ويتوعد . دخل حانوت
تعس لبقال . وقد ظهرت في زجاج الواجهة الصغيرة مرطبان
للحلوى . ووضع فى الداخل مضجع ذا كلة مصنوعة من القطن
الاحمر . أما الأرض التى عليها البناء فهى غاصة أجزائها بالماء .
وعليها آثار نعال حديدية مقواة بالحديد . لم ير أحدا ، وبدون
انتظار البقال ، اجتاز الحانوت ، الذى كان المدخل الوحيد
للمنزل .

صعد الدرج وقرع باب الطابق الثانى ، فخرج شيخ صغير
يدانى ذقنه بشمعة . وامتنح الزائر ، من الباب المفتوح إلى نصفه
ثم أدخله فى غرفة مكتظة بحزم الأوراق الممزقة ، وسجلات
ممزقة الجوانب ، وأوراق مقواة مثقوبة عليها طوابع قديمة . ولا
شك أن هناك خلف حزم الورق تلك ، سباق من الفيران .
فقد كان يسمع من آن لآخر حركات صغيرة ، وأصوات غريبة
صادرة من أنحاء الغرفة تكمل أصوات العاصفة والمطر المتساقط
على السطح .

فى زاوية مظلمة ، مضجع وهنان غير وثيق الأوصال . تخيم
على أنحائه العارية سحب التعاسة . كما خيمت سحب الثرى على

ما هناك من أشياء فأكسبتها لوناً جديداً . وقد بدا وجه رب المنزل أغبر كلون المضجع . لم يكن فيه لينطوى على أسنان البتة . ولسانه لا ينى عن الذهاب والمجيء بين شفثيه الطريتين . ونظرة إلى عيونه ذات الزرقة الماسخة ، نراه يحلم ، فى خفة ، فى هاته الفيران التى تذكره بصوتها خلف الحائط . قال جرول وهو يجلس :

— آه حسنا . تريد أن تحدثنى ؟ ؛ هل من جديد ؟

مر الآخر بلسانه على لثنيه متمهلاً وقال بصوت أخف . يطيل فى نبراته :

— أتى لسعيد جداً برؤياك ، سيدى العزيز جرول ، هناك جديد إذا أراد الانسان وليس هناك إذا أراد . هذاتبعاً للارادة . فى أثناء حديثه مريده على لحيته الشهباء وبدأ كمن يعد كلماته على شعور ذقنه . قاطعه جرول بزجرة مفرغة للصبر . قال الآخر :

— آه . يا الهى اكم تضايق . من الحق أيضاً أتى أدعى تافكر يد ريلين ، وأنتك تدعى ديزيرى جرول ، أتى أقف نفسى على خدمتك . إن الأب ريلين معروف فى كل الأنحاء من كارول

إلى حيث يصاد السمك في برها. الكبار كالصغار، يستشيروننى «
إننى أقوم بأعمال كل هؤلاء السادة. وليس أمس يبعيد، لقد
جدد مسيو دى تانكارفى ثقته بى. آه! سيدى العزيز! تلك
هى ثقة كادت تُفقد! قال لى مسيو دى تانكارفى، ما نصه :
« ريلين، أريد أن أشعل معك غليونى، ثم هاك ما حدث.
فى الأسبوع الماضى، فإن البارونة دوبسك — مارينشى...
هوى جرول على المائدة بقبضته مقاطعاً. فصمت ريلين
دقيقة. ثم عاد بصوته الطويل الناخر.

— هلم إلى أعمالك إذا سمحت. أننى أنتظر أمرك. لقد
أحضرت لك ورقة ميلاد صامويل أوار وأوراقا أخرى تثبت
شخصية هذا الرجل. ولقد مرت هاته الأوراق من يد إلى
أخرى. ياسيدى العزيز، دون أن يضر ذلك بالفائدة التى تريد
أن تجنيها. أننى لم أعمل ذلك إلا لمصلحتك.

قال جرول وهو يقطب حاجبيه : وبعد ذلك.

أجاب النور مندى : — إنتظر قليلا، انتظر.

ثم بلل شفثيه وقال : — لا أريد أن أبحث ما هى مصلحتك
فى الحصول على أوراق صامويل أوار، أننى حازم. أن الحزم هو

من فضائل عملي الصغير ، ولكن هب أن صامويل أوار قد مات .
فصاح جرول : وربك ! إذا كان قد ذهب فلن يعود . ثم
أغرق في الضحك . قال الشيخ وهو يتأمل في الدبايس المعلقة
في كمنابه :

— انتظر ، انتظر ، لنفرض أن شخصاً يحرز وثيقة رسمية
مسجلة عند وفاته ، وثيقة وفاة صامويل أوار ، المتوفى في جرسى
دون أن يترك نسلاً . وأن هذا الذى يملك الوثيقة استعملها
في الوقت الملائم .

فتح جرول يديه المخيفتين وقد بلغت الروح التراقى من هذا
العجوز الثرثار شريكه في الجريمة الذى يريد الآن أن يدخل إليه
بأن الأوراق التى حصل عليها بضمن باهظ لا تجدى شيئاً :
قال بغلظة .

— لا داعى لهذا الدهاء والغش .
اضطربت مقتلنا الرجل الطيب بقلق . ولكن كان صوته
هادئاً حينما عاد الى حديثه :
— كل ما قلته لك ليس إلا لخدمتك . ولكنى أرى أنتى
على النقيض منك . لنطرح ذلك بعيداً ولنبق أصدقاء طيبين .

وقف ثم ذهب إلى حيث مكتب تعس من خشب الجوز
فتناول من عليه أريق ماء فيه حزمة من الأزهار . قال وهو
يضعه على المنضدة :

— انظر . ستكون في حوزتي لكل الفصول . كلما مررت
بكارنيرى هناك ، في الطريق العام ، أجمع بعضاً من هاته الأزهار
من الحفريات التي تحب أملاك السيدى ليجل . فأحزم باقة
وألقها بمندبلى .

مر يده - متمهلاً - على الأزهار الزرقاء كيما تسقط المياه
العالقة بها . أضاف :

— وما دام الانسان يجتثها من جذورها . فليأت كد من أن
هاته النباتات تعيش في الماء كما لو كانت في الأرض . آه يا إلهي !
ليس لى لا امرأة ولا ولد ، لا كلب ولا هرة ، يجب أن أتعلق
بأى شيء : أتى أحب الزهور .

لم يكن جرول يسمعه . عض شفثيه وضغط على عظم
أصابعه . قفز فجأة وصاح : - أنك بملك وثيقة وفاة صامويل
أوار . اعطنى إياها ، انها تلزمنى ، أريدها !
ألقي ريلين نظرة فجائية على منضدة الخشب الجوزى .

ورفع إبريق الازهار برشاقة ووضع في مكانه ثم جلس وبل شفتيه . قال :

انتظر . كن حليماً . إني أملك هاته الوثيقة ولا أملكها . ومن الجائز ان أستعملها وقد أهملها ولا أفكر فيها . ولكن لتناقش بزعم أتى حصلت عليها . لقد علمت أخيراً ان مسيو هافيلان - الذي تلحق بخدمته منذ اعوام كثيرة ، أليس ذلك حقاً ؟ - يبحث عن نفس هذا الصمويل أوار . ومن الطبيعي أتى افكر في خدمته يا سيدى العزيز . وسيمتلي غبطة بالحصول على معلومات خاصة بهذا المسكين صامويل ، الذى توفي بئساً فى جرمى .

نظر ريلين إلى صاحبه ليرى مبلغ اقتناعه ولكن جرول أجاب بهدوء :

— إذا أردت ان تبعث بالورقة إلى سيدى فاعلم أن المنون قد اغتالته فى هذه الساعة .

لحق رجل الأعمال وجنته اليسرى بلسانه وحلق بعينه الزرقاويتين فى الخادم مرسلاً نظره الحاد . فى حين نظر جرول إليه بمكر ودهاء . قال :

— يا للسيد المسكين هايلان ! هذا هو مصابنا ! ولكن
هل أنت واثق يا سيدى الطيب ، من موت سيدك ! هناك إذا !
يا لليسوع ! أمراض يمكن أن تعرف نهايتها من البداية .
وأسفاه ! يجب أن نعود إلى عملنا . أن مسيو هايلان قد ترك
ورثة كم سيكون سرورهم عظيماً حينما يعلمون ما آل إليه المرحوم
صامويل أوار . ليست عندى إلا رغبة واحدة ، يا سيدى
الطيب ، تلك هى أطاعة كل شخص .

عاد جروول إلى هدوئه وهو يتسم مكرأ ..

— ولكن وريثة هايلان لن يعطونك صولدين نظير
ورقتك التافهة . ستكون أبلها إذا أرسلتها لهم ... أى فائدة
تجنيها من ذلك ؟ إعطى إياها وسأدفع لك مبلغاً ، بعد وقت ما .
— مهلا ، قص على عمالك الصغير . إن الرجل الطيب ريلين
يتمتع بعقل راجح . وحينما أعلم ما سيعود عليك ، أسدى اليك
النصح .

— ليس لدى ما أقصه عليك .

آه . ألهى . إثنى أعرف ما هناك . أنك جبان ولكنى
سأساعدك . إن لصامويل أوار مكافأة صغيرة عند هذا المسكين

مسيو هافيلان ، وقد جاء ذكرها في الوصية . فأذا حصلنا على بعض ورقات تثبت شخصية المتوفى . يمكنك أن تأتي بشاب قوى الإرادة ، وينتحل لنفسه شخصية صامويل . بعد أن تعده بمكافأة حسنة . فيذهب إلى وريث مسيو هافيلان ، ويحصل على المبلغ المخصص له . آه يا إلهي ! لا تعارض ! لا يجب ترك المال مدفونا ، وهذا المسكين صامويل قد فقد الحياة ولم يتذوق خبزه . ولكن ، يا سيدي العزيز جرول ، من الذي سيمثل دور صامويل . وإذا استولى على كل شيء لنفسه ؟ فقد يكون غادراً . وينقص عليك . يجب أن تفكر في كل شيء . إن هذا العالم السافل مليء بالخيانة والغدر ! حذار ! إتي لا أبني شيئاً غير سعادتك .

مر الرجل بطرف لسانه الجلودى بين شفثيه وأتم :
— اُحذرك . الرجل الفطن يساوى اثنين . إتي أعرف هذا الشخص الذي يملك قسيمة وفاة صامويل أوار . هذا الشخص ليس بتركي أو يهودى . إنه لا يريد بك شراً فهو أعقل من ذلك . وقد أذنتي أن أبلغك إرادته : تحصل على نصيب صامويل أوار ، في الوصية ، وعند ما تحصل عليه ، أعطى لهذا

الشخص جزءاً معقولا بواسطتى ، ليس هذا معناه أن تعطيه النصف . لا . . . هذا سيكون كثيرا ، يجب ألا تضايقك . . . ولكن ، كما قال ، جائزة بمعدل خمسين فى المائة . فى نظير ألا يذيع هذا الشخص سر المسألة باستعماله الوثيقة التى يحرزها ، الأمر الذى يغضبك ويسبب لى أشد الألم .

كان جرول منزويا فى الظلام طوال هذا الحديث ثم قفز إلى الرجل وقبض على عنقه صائحا :

سـ اعطنى الوثيقة . أيها الشيخ اليهودى . وإلا خنقتك .

لقد كان يخشى أن تصادفه عقبة لم يحسب حسابها .

بدى ريلين ، الأصفر الهزيل ، كأنه فى النزاع ، جمد وقاوم بعضلاته بمرونة رجل ذى خبرة على العراك مع البحارة الذين يرهنون عنده ساعاتهم ليشربوا الخمر . زادت هاته المقاومة من خوف جرول ، الذى انصبغ بلون احمر وأخرج مديته الرديئة ، ذات النصل المدبب ،

وهنا زلق الشيخ كما يطلق لنفسه الحرية ، فوقع أمام زاوية المدخنة ، الأمر الذى سبب له جرحا فى جبهته . وقع جرول معه دون أن يتركه . ورأى خدش غريمه ، ثم الدم الذى سال

غزيرا ، هذا الدم وتلك الجراح سببت له الوهل . وبحركة عضلية ،
أغمد السكين في صدر الشيخ . . ثم ، بعد دقيقة ، بدت له طويلة
الآمد ، لم يلاحظ شيئا .

تمدد الرجل فوق يده ، لم يزل جاحظا عينيه الزرقاوين ،
فاغراً فاه . يقاوم بكل عضلاته : ثم ، بعد هاته الدقيقة الأخيرة ،
أقفل يده وفتحها كمن يمسك بشيء . ولم يبد أكثر من هذا .
إذا رقد الرجل رقاده الأخير وقد ارتسمت على شفثيه
ابتسامة الماكر . كسر جروول بمديته قفل المكتب الجوزى وصار
ينبشه ويرمى بأوراقه . قاربت الشمعة الانتهاء وهى ترقص .
وأخذت الفيران تقرض الأرضية . وسط هذا السكون . نبش
حزم الورق ، والمظاريف ، رمى بكل الأوراق فوق الجثة
الهامدة . وجأة أنيرت الغرفة بلهب عظيم . فقد سقطت ورقة
على الشمعة ، فأشعلتها . استمر ينبش الخطابات ، الورق المقوى ،
الأوراق القديمة ، الحقائق الجلدية ، ومحافظ الورق . أخيرا ،
وجد ورقة مختومة فوضعها فى جيبه وقد تنفس الصعداء . أطفأ
الشمعة التى كانت تدخن وقد هب على وجهه لهبها فخرق جفونه
قبل أن يتمكن من إخماد لهبها . ثم أخذ قبعته وخرج .

أنصت لحظة في الخارج ، ثم صعد على درج الهرى ، ونظر
على نور السماء في الشارع . رأى ، على مدى النور المرسل على
الطريق المبلل ، أن حانوت البقال لم يكن مقفلاً فاختفى خلف
الصناديق الفارغة وانتظر طويلاً وقد علا صوت الخنازير ،
وشخير النائمين ، ودقات الساعات . . أخيراً . . لما أن وثق من
أن المنزل والشارع في هدوء تام ، تسلق جبلاً ، كان البقال
يستعمله لأصعاد بضائعه إلى الهرى ، ونزل إلى الشارع في خفة
القرد .

١٠

نقبت هيلين ولا يشغلها إلا فكرة واحدة ! الاستحواذ على رينيه والحرص من أن يفلت منها . تريد ألا يبرحها ظله . تحس إلى جانبه الطمأنينة والقوة . فلقد زعمت أنها إذا ما جمعتما غرفة واحدة ، لن تشعر بهذا الخوف والفرع اللذان يعتريها . إذاً فلتتزوج وتعيش في سعادة بين زوجها ووالدها . وكل ماضيها البريء حافل بذكرى هذين الرجلين . لا إن العقل الشرير لن يوحى إليها بكل هذا الحب .

ولم تدر شيئاً من الأشاعات الدائرة حولها في الحى . ونظرة إلى وصية مسيو هافيلان ، التي قرأها الوصى على الورثة ، نجد أنها خالية من التعقيد والأبهام . فقد ترك المتوفى استثمار ممتلكاته لهيلين هافيلان الملقبة بفليير ، ثم تؤول هاته الممتلكات بعد وفاة المستثمرة إلى جورج هافيلان أو إلى ورثاته المباشرين ، إذا خلف ورثاء . أما جرول فقد ربط له مرتباً سنوياً ألف ومائتي فرنك . وأوصى صاحب الوصية أن تكون إدارة ثروة جورج هافيلان القاصر التي كان يديرها هو

فى يد صديقه الشيخ م . شارل سيمبسون المالى الباريسى .
ولكن حالت الظروف دون إرادته هذه ، فقد أصيب بكسر فى
العظام من جراء كبوة جواد ولم يتمكن من قبول المهمة التى
أناطها به صديقه المتوفى . وعلم مسيو فيلير بهذا المشكل فظن
أنه يمكن أن يحل محل مسيو سيمبسون .

وأخذ يظهر عطفه على ثروة القاصر وملاء الأوساط
المختلفة حديثا عنها . حتى أنه قال يوما ، وكان ذلك بعد الغداء ،
حينما أحضروا له الكونياك ، ولقائف التبغ : أنتى أشعر
بالعطف على هذا الناشئ ، ويشغلنى أمره كما لو كان ابنى . أشعر
نحوه بعاطفة الأبوية .

وبعد أن وضع قطعة من السكر فى القهوة عاد إلى حديثه :

— لا أعرف ماذا كان ينبغى أن أفعله نحو هذا الابن .

تأمل قطعة من السكر وهى تذوب فى الفئجان وابتسم
بحزن لهذا الاختفاء ، كما لو كان يراعى أمه ، وقد لاح له أنه من
الضرورى أن يكون وصيا على جورج هاثيلان ثم شرب ماتكون
من قطعة السكر وعأوده الأبتسام .

أمعنيت هيلين النظر إلى والدها بقلق وقد تنبأت بما سيقوله

لها . جرع كاشا من الكونياك وقال :

— هذا المسكين سيمبسون كبا به الجواد بحالة يرثى لها
ولعمري هذا شيء يؤسف له فنذ مدة قصيرة كان قويا يمتلي
نشاطا . وها هو يصير معتوها . . . حينما قلت أنه نشيط ،
كنت مبالغافهو لم يتعود قط على إدارة الأعمال الكبيرة ، هذا
رجل جبان ، يخشى المخاطرة .

وأشعل مسيو هاثيلان لفاقة التبغ . لقد خاطر ! صمتت
هيلين وهي تحقق بوالديها الذي يدخن في سكون مرتديا ثيابه
السوداء . يبدو في تدخينه بطلا وسط السحب . وتجلت فيه
عبقريّة المالين . عاد إلى حديثه :

— هذا السيمبسون كان لنا ، متساهلا ، وأنا أتساءل عن
مبلغ عطفه الأبوى على جورج .

ثم ، وقد انتهى من مقدماته ، أخذ في طلب ما يريد .
أملى عليها خطابا إلى أفراد العائلة تنتخبه فيه وصيا على جورج
هاثيلان . رفع رأسه وشاربيناته نحو الورقة قائلا :
— أكتبى ، يا إبتى ، أكتبى :

«وانتى لو ائقعة من أن هذا الانتخاب كان يحوز قبول زوجى ..»

وجمت إزاء هذه الأكذوبة الفاضحة ، والاختلاق الغريب .
ولكن ، قد جحظت عيناها نحو أبيها ، رأت وجهه المحترم
وهدوءه . الأمر الذى جعلها تكتب ما يمليه عليها . وأخذ هو
يفرغ عبارات الحنان الأبوى فى أحسن قالب . وذهب ليضع
الخطاب فى صندوق البريد . فى حين جلست هيلين وهى خجلة
هلعة لأنها خدعت زوجها المائت . . أنها تفكر : لو عاد . .
فلقد تخيلت رؤياه . واقشعر بدنهما . وارتعدت فرائصها لهذه
الفكرة . ونم وجهها عما تنوء به من تفكير . أنها تعلم حق العلم
أنها لن تراه إلا فى الخيال ولكنها لاتستطيع أن تبعد شبحه عنها .

لم يغمض لمسيو فيليز جفن طوال مساءه . أنه يفكر فيما
فعله اليوم . عاد إلى مضجعه وهو يقرع الكوب والدورق
الموضوعان بغليونه . فى حين كنت ترى عويناته جانبا الى
الشمعدان على المنضدة المصنوعة من خشب الأكاچو . وقد شغل
فكره بالثروة المقبلة ، ثروة هذا الصبي الذى سيصير تحت وصايته .
ليس هذا فقط . فإنه يأمل ان يجد ابنته سهلة القيادة . وهنا ينفذ
مشروعه الخطير ، أمنيته ، وحله الوحيد . سيبحث هذا المشروع

من مرقده ، فيؤسس : شركة الرهونات . ولن تمتنع الحكومة
عن السماح بتأسيس شركة لها ضمان كاف . أن قائمة أعضاء
مجلس الادارة ، تحوى اشخاصا ذو اوسمة وألقاب ، الامر
الذى يكسب الشركة ثقة تامة . فى هذه اللحظة السعيدة ، لحظة
سما فكره إلى عالم وارف من الظلال ، رأى مسيو فيلير شبعا
مخيفاً ممرين أستار مضجعه . . هذا هو شبح شركة العنقاء .

شعر بالعرق البارد على جبهته ، وتحته رداءه المصنوع فى
مدراس ، ولكنه أزاح عنه هذه السحابة المخيفة . تأمل من
جديد فى مشروعه . تخيل لشركته رمزاً سامياً : يدان فى أكام
من النسيج الأبيض الشفاف . وأمسكت احدهما بالآخرى
وارتأى ان يطبع هذا الرمز على النشرات والأوراق الخاصة
به وعلى الخطابات ، والتحاويل ، والسندات ، والتعهدات ،
الصكوك ، وينحت على الحجر فى واجهة العمارة التى تشغلها
الشركة الجديدة بجوار الأوبرا . سوف يبتاع قطعة أرض فى
هذا الحى المتوسط ويقيم عليها بناء فخماً لهذه الشركة .

تنفس الصباح ، ولاحت الأنوار الأولى بين ستار النافذة
ومسيو فيلير غارق فى مشروعه يحلم فى الآثا ومايعوز الشركة
من منقولات .

١١

فى اليوم التالى لهذا الذى تناول فى لونهاار وصىقه الغاء
عنا برىقا . جلس الاول فى مقهى ىناول أفطاره وىطالع
جريدة . فوق نظره على عامود من الاخبار بعنوان « النظارة »
لم ىوقع كاتبه باسمه الصصحى . وقد عرف أن كاتبا هو بوىه .
قطب حواجه حىنا قرأ الآى :

« لقد قضى عظم من عظماء الأنااب ، وهوى نىم . ساطع ،
ومت أنفاس مسىو هاىلان الذى شىعت أمس جنازته ، وقد
ترك فى منزله المملوء بالتحف والنفائس ، فى شارع لابتو -
موبورج بمجموعة قىمة فرىة ، تحوى بضعة آلاف من الزجاجات
الملاى بالمىاء من جمىع البهار والأنهار والىناىع والشلالات فى
العالم . وكان مسىو هاىلان شهىرا بنىراته أكثر من شهرته
بمجموعاته ، وأن موته ، الذى سىكون له رنة أسف عمىقة من
كل فقراء حى الأنقالىد ، ىىءو أنه ناشىء عن خطأ غىرمقصود فى
تركىب الدواء الذى كان سىستعمله لمعالجة روماتزم أصابه . وهذا
هو رأى أمراء الفن . ونحن جد سعاء بما لىنا من المعلومات

التي استقيناهما من مصادرها الوثيقة بحيث يمكننا أن ندل على
الأسباب الحقيقية لهذه الفاجعة الأليمة . .

أغاضته العبارة الأخيرة وأهاجته سطورها . وقد صمم على
أن يقطع وجه صديقه بسياطه . وصاح حانقا ، لأعرف اين
يجثم هذا القرد ، وانطلق يبحث عن إدارة الصحيفة . وقد قابله
في الفناء الذي نصب على مدخله تمثال برنزي لعصفور وآخر من
الرخام الأحمر على هيئة حمامة . الأول فوق صندوق الخطابات .
والآخر فوق هذا الذي لصور المراسلات . وكان المخبر يستعد
للخروج وهو يفتح مظله ليتقى المطر الذي يهطل في الخارج .
وقد أمسك هذا بذراع لونجمار وقد عادت به الكرة إلى يوم
سرق منه بوتيه أجوبة الامتحان من درجه لكى ينقلها بدورة .
فأخذه شىء من الحنان . ابتسم بوتيه لرؤياه وصاح به :

— يا عزيزى : اتى أدعوك لتناول العشاء معى هذا المساء
عند بريقا ، أتى ذاهب لحديث مع الحاخام الأكبر . وقف
لونجمار فى طريق صديقه واضعا الجريدة الممزقة تحت أنفه وقال :
— ماذا تعنى بالعبارة الأخيرة من مقالك ؟ من ، كما تقول
أعطى معلومات عن هذا الحادث ؟ ما هى شهتك ؟ ومن تشبهه
فه ؟ أجب ..

أدار بوتييه عيناه إلى لونيهار والصحيفة . ثم أجاب بسداجة :
— سأقول لك يا صديقي القديم . لقد فعلت هذا كيما أردد
الصوت . . أردد الأشاعة الدائرة . . هذا كل ما هنالك . وكما
أنك تأثرت بها . . فيجب أن تتنبه جيداً ! لقد هاجمت
ولم أذكر أحداً . وسوف يتردد هذا الصوت ، ويرن صداه
في هلدرا^(١) هذا المساء .

تركه لونيهار بعد أن هز منكبيه ، إن أعصابه لمناثرة جد
التأثر . وقد تنازعت عوامل مختلفة وصدمته الحوادث تباعا ،
وأصابته منه العواطف . ان مما لا يقبل الشك أنه أحب هيلين ،
وأن هذا الحب سبب له متاعب هائلة . وتحت هته المؤثرات ،
ينتهى في أسبوع من كتابة مقالة للجريدة الطبية وألف قصيدته
الأولى . واتصل فجأة بياثة زهور في مرقص عام أنفق عليها في
ثمانية أيام مرتب اربعة شهور .

أخيراً أبدى له أن المقالة والقصة وبائعة الزهور . شيء تافه
ممل . وقضى أسبوعاً أيضاً بعد ذلك في حالة ضجر ومضى في

(١) ميناء حربية في شمال هولاندة — على بحر الشمال . والمؤلف يعني بذلك أن
الأشاعة سوف تملأ العالم .

يوم صحو إلى منزل شارع لاتو - موبور حيث أمكنه - بعد كل هذا الوقت المنصرم - أن يقدم إلى الأرمل تعازيه الحارة .

حينما اجتاز الفناء ورأى المدخل بدا له أن قد مر قرن لم يره فيه وكان تعباً كما لو كان قد عاش حقبة عديدة ، وأعصر مديدة .

انتظر هيلين بضعة دقائق في ردهة الاستقبال . حينما بدت أمامه في ثيابها السوداء ، تخيل أن هذه هي المرة الأولى لرؤيته لها . وليس هذا إلا لأنها قد تبدلت تماماً . فمذ أن نقهت وقد بدن جسمها وأشربت ديباجتها حمرة قانية . وقد تخيل وهو يراها أنها قد لبست ثوباً جديداً . وابتسمت عيناها تحت شعرها المرسل على جبهتها . ابتدأت هي الحديث . فكان اللاشئ الذى قالته داعياً لاهتياج شعوره . وكانت هي أقدر منه على ضبط شعورها . حدثته عن تذكارات الوفاة الأخيرة وما إلى ذلك من آلام وشجون . ثم انتقلت إلى التحدث عن المستقبل .

حدثته أنها لا تحب العالم . وسألته عن مشروعاته . فهو يريد أن يجرب زبائن المدن ، فيحترف الطب فيها ، وسيمده والده باللازم . فوافقته على ذلك قائلة أنها ذات اصدقاء فى سان

جام ونوبي يمكنهم أن يساعدوا الدكتور الشاب ويكونوا
عملائه . ووعده أن تشرف على عمله . وتهتم لمستقبله . أما
بالنسبة لها فقد قالت أنها لا تعرف ماذا ستفعل . أضافت
باختلاق لطيف ان الثروة التي ترك لها مسيو هافيلان استثمارها،
والتي خصص جزء كبير منها للخيرات ، ليست بذات أهمية لها .
أضافت : « إذا صرت امرأة فقيرة . هل تباعد عني ، وتنفر
منى ؟ وهنا دل على ذوق سليم بعدم إجابته . لم يتحدثا بكلمة
عن الحب . ولم يخطر لآتفاسه أن تضم أنفاسها . أن يتنفسون
بجهد ، وهم ساجدون في عالم لذيذ . عالم الحب الذي يشعر كل
منها به . قالت أنها تشعر بالحر . أخذ يدها وضغط عليها بعد
مجهود منه ولم تستعيد لها منه . لم يعرفا ما يفعلان وإن هما
ليريدان الموت سويا ، أوقف الضمير هيلين . فسحبت يدها
ومرت سحابة غيم على جبهتها . فكرت قليلا وقالت :
— هناك أعمال قد فعلتها ولن أزيد عليها .

عقب هذا القول ، الذي أذكى في نفسها دفين ذكرياتها ،
أدار رينيه رأسه وقد انحدرت دموعه على وجنتيه . في دورته
أخذت يده . وطرقت آذانهم صوت أقدام في الردهة . قالت :

« حبيبي ، حبيبي ... » وبدون أن تتم ، سارت قليلا وجلست
على أحد المقاعد .

دخل مسيو فيليز ، الذي أعلنت قدومه حركة حذاءه .
وصافح الطبيب بحرارة . وقد تذكر ليالى شارع نيٲب - دي
بٲيت - شامب . قال لرنيه :

— لقد رينناك ، أنت أبنا . ومن الحق أنك رأيت عندي
وجوه عديدة وأشكال جمه . لقد كانت بالنسبة لك مدرسة
للملاحظة . والآن .. لقد قمت إذا بسياحات . ورأيت أقطارا ،
كحمامة لافونتين . آه ! البحر !

انطلق يتكلم عن أشعار المحيط بنشاط . ثم طلب أن يأذنوا
له في قراءة رسائله والرد عليها .

استوى أمام المنضدة . وقرأ أوراقا وهو يتذمر ويدمدم دلالة
على تدمره ومлле . وقد تراكت أمامه أكوام الورق والصحف
لذا فقد اقتصر على قراءة الهام منها

وأما هيلين ورنيه فقد كانا يتبادلان النظر في سكون وهما
يحملان أنها وحيدان .

أخيرا جر قلبه فوق بعض الأوراق ووقعها بخشونة مرسلا

أياها إلى البريد . واستنشق الهواء مالتاً رثيته . عاد إلى ملاطفته . أنه ولد طيباً ، فى شىء من السخرية . . إقترح أن يقوموا بنزهة خارج البلد ، فى الضواحي ، فى حين لم يبد احدا رايه ثم انها ليست برحلة سارة . ولما كان يجب ان يتناولوا غذاءهم فى الخارج فسياً كلوا بعض المقلبات فى ميدون .

وسار الثلاثة إلى نزهتهم وهم يكونون عائلة واحدة . . .

فى ميدون السفلى ، ساروا وسط العشب على حافة الماء . رفعت هيلين ذراعها برشاقة لتحمى قبعتها فكانت تلك الدقيقة من لحظات رينيه السعيدة . كان شعر المرأة الصغيرة مرسلا على جبهتها وقد لمعت عيناها من تحته ببريق عذب . وتبادل الاثنان النظرات العميقة البريئة الدالة على شعور كل نحو الآخر . تذكر مسيو فيلير أعماله . فطلب مدادا وورقا . ولم يحصل - بعد مشقة - إلا على ورقة قدرة . وقلم علاه الصدى ، نخط على ورقة زرقاء من ورق بات الانكليزى بعض أرقام - ووضعها فى جيبه . ثم سأل بخشونة إذا كان صديقه الشاب لا يعرف أصحاب السفن فى تولون . قال هذا بلهجة تدل على أنه سوف ينتج فكرة عظيمة . الأمر الذى يعد محالا . . .

تناولوا غذاءهم . وعصر مسيو فيلير نصف ليمونة على غذائه
المقلى . وقد فعل ذلك بظرف يتجلى فى يده الغليظة القصيرة
المثقلة بالخواتم . تأمل الشابين من خلف عويناته ذات
الأصداق . تطوى نظرتة هذه شئ من الغبطة والبركة . وقد
امتدت أمامهم فوق النهر ، مرعى للماشية . وسدت الأفق جزيرة
طويلة بستر من شجر الحور . ومرت بعض قوارب فيها رجال
شمروا عن سواعدهم يحدفون ، فى حين اتجهت انظارهم إلى النساء
الأنينات الواقفات أمامهم فى الجزيرة ، ينادينهم ويضحكن لهم
وبدى نور يخبو فوق البحر ، أشبه شئ بنور الجباحب ، ثم هطل
الودق ، ورعدت السماء ، وهب نسيم لطيف وسط ، هذا الظلام
الداجى . نخلع رينيه دثاره الأسود ووضعته حول منكبي هيلين
أما مسيو فيلير فقد أخذ يتأمل جمال الطبيعة ، وقدرة صانعها .
فأجابه لونجمار أن الطبيعة إن هى إلا مسرح لمقتلة عظيمة دائمة .
وأن مخلوقا لا يعيش فيها إلا للقتل . وهنا أجاب مسيو فيلير :
— أنك تذهب بعيدا جدا .

كان هؤلاء المتسربلين بالظلام ، يشعرون فى اجتماعهم
بسعادة ، وقد كانوا سيظلوا هناك وقتا طويلا ، لو أن رجل

الاعمال لم يفكر فى متدى كلبار . فما أن تذكر أن وقت الذهاب
للعب البليارد مع بعض التجار والوسطاء قد حان ، حتى قال
وهو ينظر فى ساعته ، ويرمش بأهدابه الثقيلة :

— يا أبنائى . لقد حان ميعادى . أنتى مرتبط بموعد هام
جدا . ثم أنه لن يمكننا البقاء هنا لأنها تنذر المطر .

سكنت الرياح . وعدت بعض سحب عدوا مخيفا فى السماء
وبدى قمر كامل . قد لبس حلة حمراء ، وكنت ترى الثلاثة
يبحثون عن الممر الضيق الذى يصعد إلى ميدون العالية ، ويؤدى
إلى المحطة . وسارت هيلين متكأة إلى ذراع رينيه ، وقد حبس
أنفاسهم سكون الليل الرهيب وفجأة سرت إلى هيلين قشعريرة .
قالت :

— أنتى أشعر بخوف

بدى رجل فى أثمال بالية ، طويل القامة ، هزيل ، طالت
أقدامه ، وما أن رفع قبعته القش ، حتى بدى وجه نحيل ، ذا عينين
كبيرتان كدرتا اللون . مد يده وهو يتمتم نوع من الرجاء .
ضغطت هيلين على رينيه وهمست :

— أرايت ؟ أنه يشابه ... آه أنتى أرتعب ا .

أبدى رينيه قلقه . هذا المتسول يذكرهم بالسيد هاويلان .
وقد تألموا لهيأته الفانية . وخركات الألم الذى يبيدها ، وهى
شبيهة بتلك التى أبدأها من قبل مسيو هاويلان . اجتازا الطريق
وقد تناثرت الأحجار تحت أقدامهم . وهلين على أسوأ حال
من الفزع . وجحظت عيناها نحو شئ فى الظلام . فى حين لم
يرينيه أمامها غير شغاف الأشجار تلف حول صخرة كبيرة
ولكن الأرمل كانت ترى شيئاً آخر ، زاد رعبها فصاحت صيحة
الخوف وسقطت إلى الخلف . فأراد مسيو فيلير ان يجلسها
ولكن رينيه منعه من ذلك وتركها ممددة . لقد كانت فى حالة
جمود . وشفته تتحركان وهى تزبد . وجحظت عيناها نحو
السماء . ولما ان أفاقت لم تتذكر شيئاً ، فهى تعبئة منهوكة القوى
وما أن وصلت إلى باب المنزل حتى طلبت من والدها ان يذهب
لينام معها فى المنزل ذيك المساء . لأنها لا تزال جد خائفة .
وشدت على يد رينيه يدها الجليديه التى لا أثر للحياة فيها .
ونظرت إليه فى وهن ويأس .

١٢

استمر خوف هيلين وهلعها واستولى عليها القلق والفرع
فهى تخاف السكون وتفزع للجلبة . المنزل وغرفة ، الشارع
وضوضائه ، كل هذا شيء مخيف . فى كل الطرقات كانت ترتجف
هلعاً .. إلى أن جاءت صديقها القديمه ، ربيبة المدرسة ، سيسيل
والتي تأهلت برجل ثرى . أنت فى حفل كبير لترى الأرملة .
وقد سبب ابتسام الزائرة وغمزها ، عذاب هيلين . لقد قرأت
سيسيل كلمة الصحفي التى لمح فيها من طرف خفى الى موت
هاويلان ، فأذكت فيها حب الاستطلاع . قالت لها :

— ما أكثر هذيان هؤلاء الصحفيين . أنهم يتحدثون عن
موت فقيدك يا عزيزتى المنكوبة ، ويغمزون من طرف خفى
إلى أن الحادث ليس بطبيعى ، بل هناك سر قد كشفوا عنه .

أجابت هيلين بفرع :

— إتنى لا أفهم منك شيئاً . أوكد لك . . .

ولكنها ارتبكت ولم تستطع المضى فى حديثها . فلقد بدأت
بالدفاع عن نفسها كأنها متهمة بقتل زوجها !

بحث عن هذا العدد وقرأته ، فأصابها الأرق المستمر .
في هذا الوقت ، كانت محكمة أفرانش مشغولة بجريمة القتل
في منتصف الليل . إن ريلين وكيل الأعمال ذو السمعة السيئة ،
وجد مقتولا في منزله . شارع جستر في جرانفى . حصرت
التهمة أولا في عامل بحرى ، سكير معربد ، كان في زيارة ريلين
الساعة الخامسة من مساء اليوم السابق لاكتشاف الجريمة . وقد
رآه البقال ، الذى يسكن فى الطابق الأول ، وهو صاعد وعليه
علامات الشر . ولكن التحقيق الطويل أسفر عن براءته فأطلق
سراحه . وعادوا إلى البحث فى منحنى آخر . فامتحن المحقق
ظروف الجريمة ، وذهب إلى منزل القتيل ، فعابن الأوراق
المبعثرة بعيداً عن المكتب ، وقد استنتج انها نبشت بسرعة
وألقيت على جثة القتيل . فكونت مجموعة كبيرة . ووضعت كل
فى مظروف ، تحمل اسما وعنوانا . وقد ترك الباقي منها حينما
وجد بغيته . وحدث أن عثر المحقق على مظروف فى آخر
المجموعة ، وهو فارغ ، دليل على أن أحداً ما استولى على
محتوياته . وعلى زاويته العبارة الآتية :

مسيو جروول ، عند مسيو هافيلان يارى .

فبحثوا عن اسم جرول فى جرائقى فلم يعثروا به . ولكنهم وجدوه فى افرانس ، فى سجل فندق الحصان الأحمر . وقد كان هناك حينما جاءه رجال الشرطة فقبضوا عليه .

علمت هيلين بهذا الخبر من الصحف ، بعد ليلة قاسية ، رأت فيها شبحة فى حالة مفزعة ، كان أمامها ، دون أن يذكرها بشىء ، ودون أن يصبغ وجهه بأرجوان الحنق والأزدراء . لقد أراها فقط صنيعته . وهو مرتدى فى ثوب دموى كيف تعيش إذا ، إذا عاد شبحة إليها كل ليلة ؟

جاء والدها وقت الغذاء فارتمت عليه بحجاب وخوف وحدجته بعينها وهى تهزه بعنف حتى انه اضطر ان يقول لها :
— ماذا عندك إذا . أنك تسينين إلى .

ثم حدثها انه كان دائماً غير راض عن جرول . وها قد اكتشفت جريمة هذا التعس الذى اقشعر لها بدنه ، وقد طرأت عليه فكرة جديدة هى البحث عن صامويل أوار ، فكتب فى الصباح كتابا خاصا بهذا الموضوع إلى سفير فرنسا فى انكلترا ، وسيواصل أبحاثه . وفى أثناء ذلك بدت نظراته الحادة كما لو كانت ستحرق الطنف .

تأملت هيلين من سماع هذه القصة التي تذكرها بما أوصاها
به زوجها ، فقالت له :

— أبته ! ألا تقبل أن ترحل مع ابنتك بعيدا ، بعيدا جدا ؟
فسألها ببساطة : أين ؟

وقد بدى له أن فراق منتدى كلام ضرب من أشد ضروب
المحال . قبل جبهة أخته وتمتم : أيتها الأبتة !

ثم ، بفكره المتساهل نحو الحياة وحنانه الأبوى ، وجد
ضالته التي يستبقى بها الأرملة الشابة في پارى . فقال لها :

— إن صديقنا لونيجمار لن يروق له سفرك .

ولكنها أجابت أن مسيو لونيجمار لن يفكر بعد إلا في فتاة
صغيرة مريحة ، ثم ضمت يداها في تضرع وصاحت بصوت
محزون :

— ألهى ! ألهى ! أى شيء صارم هي الحياة .

أخذ يداها وعاد بصوته الغليظ .

— لمن تقولين يا بنية !

بعد أنلقى مسيو فيلير بمحفظته التعسة على المنضدة ابتدا
يدخن ، وهو يفكر في صامويل أوار الغائب .

ومن هذا اليوم ، ساء حال هيلين من الحزن والتفجع .
ونالها من غصص الكرب وتباريح العذاب مانالها . وقد أحست
بحاجتها إلى الاعتراف حتى يعتلى الحق الصراح .

على أثر التحقيق مع جرول . طلب المحقق معاينة منزل
المتهم وذهب مدير الشرطة يستأذن مادام هاثيلان في البحث عن
بعض أوراق في غرفة جرول القديمة ، التي كان يقطنها أيام أن
كان يلحق بخدمتها . ثم طلب محادثتها .

رعدت فرائص هيلين لهذا الخبر . ورأت في غرفتها ، زوجها
مبلبل خاطر ، ولكن في هدوء وسرور . كان جالسا يتصفح
مجلة . ثم اختفى شبحه من أمامها .. إذا قد تبدل هلع هيلين
بأنكى الآلام .

لقد تخيلت القضاء . يقف منها موقف الاتهام . وجرول الخادم
يفضى اليهم بمعلومات عنها . ان كل مآثراته عن جرائم ماري
انطوانيت تعاودها ذكراها . وتتخيل سيف القضاء يحز عنقها .
ولقد ترى في سيئاتها أظنع آيات الرعب والوهل . تقلب مقتلها
في حجاجها كالمختبئة المسوسة من فرط ذعرها . في الساعة

العاشرة سمعت قرعاً على الباب . فتحت النافذة كما تقتل نفسها
أو تنقذها ، وجاء جورج الذى عاد كعادته من الكلية . قذف
بكتبه جلال على المنضدة . نظر إلى عمته . وقال لها :
أن عيناك كبيرتان اليوم .

فتح كتبه باستهتار ريثما يتم أعداد الغذاء ، لعمل واجب
يونانى . ثم جلس القرفصاء فى زاوية مقعد ، معتمداً بذقنه على
المنضدة . وجعل يبحث فى قاموسه . ورغما عن استهتاره فقد
ترجم ترجمة حسنة . وقد أحدث أثناء الكتابة بقعا من الحبر
مسحها بعد ذلك بلسانه .

كانت تصغى بيلادة الى ما يحدثه الصبي من قرقرة بجذائه
على مقعده . أخذ يقلد صوت مدرسه فرفع صوته .

— لاحظوا ياسادة ، ما تحويه أشعار سفوكليس من النظم
الحسن . نحن لانعرف كيف كانوا يلقونها .. مسيو لا برونى ،
ستصرف لى ذياك الفعل عشر مرات .

ثم قال الطفل بصوته الجهورى :

— هلا عرفت يا عمتى أن أستاذى يلبس ياقات من الورق .

نحن نسميه بيتون . أتعرفين لماذا ؟ ذات يوم ، قال لئاء أيها

السادة ، لقد كان يتون وحش غريب الحلقة ذا بشاعة كريهة .
وهنا صاح أحدنا ويسمى لايروني «أنه مثلك» أنه شهير لايروني
قولى إذا يا عمتاه . أتعرفين أنك سيدة فائقة الجمال ؟

ثم اتجه بأفكاره إلى الترجمة اليونانية . فقد أخذ يقرأ الكلمة
اليونانية وترجمتها بالفرنسية بصوت عال يملأ الغرفة . يشبه
الطائر الغرد . وكان يقف أحيانا عن القراءة ليعد كرات اللعب
الرصاصية الصغيرة ..

— ان الرأس الالهية لجوكاست قد قضت ... يا اللباوة ..
لقد ذهبت .. الى مضاجع العرس .. هذا معناه نحو غرفة النوم .
لاحظوا .. ياسادة ، أية اصطلاحات قيمة !. وأية موازنة !...
مزقت شعرها ونادت الميت ، أترين يا عمتى أن لائيس فى الفرنسيه
هو الموعظة ، ولكن فى الاغريقية هو الرجل الطيب الذى
تزوجته جوكاست ، وذاك الزواج لم ينجح .. « مزقت شعرها ،
ونادت لائيس الميت »

خرجت هيلين من تلك الترجمة من الاغريقية إلى الفرنسيه
بقصه سامية لامرأة يائسة .

أما هو ، وقد تعب ، فإنه لقربه من النهاية ، أسرع :

— لقد رأينا المرأة المشنوقة ، وهنا ضغط بالقلم على الورقة
غفرقها . وكشف عن لسان مغطى بالحبر . ثم أنشد :

— المشنوقة ! المشنوقة ! لقد انتهت !

قامت هيلين وصعدت إلى غرفتها هادئة . فبدت فيها صورة
واضحة للإرادة .

التفت بوشاحها الأسود ونزلت من درج الخدم .

١٣

لما أن صارت في الشارع . جهرت عيناها . فقد كان هذا الصباح رائقا ، وانتشرت الأنوار انتشارا غريبا . وقد أكسبت الأنوار الطبيعية جميع الأشياء أبهى الحلل وأجملها . هاته الأضواء سامت هيلين العذاب . وكانت لا تعي شيئا مما تراه . كانت تنظر بذهول إلى الأشياء - كأرقام العربات وأسماء المتاجر ، وبدت لها مقلقة ، تنهك أعصابها المريضة . كل ما رآته تخيلته قد اخترق نفسها بوحشية وجرحها . سارت بعزيمة ماضية . فلقد خطر لها شيء بدا حسنا ، فكرة تغلبت على ماعداها للتو واللحظة . سارت وهي لا تشعر بما ينالها من تعب . فقد تسلطت إرادتها الحديدية عليها . . ولاحظت أمامها فتاة تسير حاملة ولدا صغيرا وزجاجة من اللبن . ورأت هيلين القطرات البيضاء التي تسقط واحدة فأخرى إلى أحجار الأفريز . كل ما يشغلها هو هذا اللبن المراق . فكل قطرة مراقبة كانت تسومها أنكى العذاب . عند ما انتهت من الطريق ، بدا لها طريق آخر ، فترددت ثم اتجهت إلى اليمين وعادت سيرها . كان حي أرزاي معطرا برائحة الحدائق . لقد ذهبت . . في شارع پال عند قنطرة رويال .

وُسِد الطريق أمامها بزمرة من العمال ، عمال الترام ، والعربات .
اتجهت إلى القنطرة . دون أن تنظر إلى الماء . وسارت إلى اليمين
حيث سارت بين مجاميع الصفصاف وممرات الحمامات . فدخلت
قارباً مملوءاً براحة الماء الساخن والقطران . ثم طلبت من العاملة
أن تعد لها حماماً . وانتظرت ، وهي تعض قبضة مظلتها . وكانت
على أتم هدوء حينما دخلت حمامها وقالت أنها ستقرع الناقوس
إذا ما أرادت رداء الحمام . حينما أقفلت الباب الصغير عليها ، فتحت
النافذة بحركة عنيفة ، وأستدلت الستائر . وتنفست بقوة . وكانت
تأمل أمامها السين يحرك أمواجه الصغيرة الهادئة . . . بعض
الغسلات في قاربهن عند الشاطئ . الآخر ، وكان طنين الناموس
يرن في الهواء صاعداً من فتحات حمامات الرجال المزخرفة . . .

رأت هذه المناظر بغير اكتراث وبدت كأنها سعيدة .
وكان منكبيها ملتفان بدثار من الكازمير الأسود ، وأرسل
قناعها على قبعتها وحول رأسها كخيال الموتى وبدت أجمل منها .
في أى وقت آخر . وقويت عزميتها . وثارت موجة خفيفة
ما لبثت أن ازدادت . وقد كانت القوارب تخطر بخفة ، ومن
أمامها قارب متجه إلى بون دى جور ، فسمعت أصوات راكبيه

يتحدثون عنها ، وهما شابان من العوام ، يدفعان بالقارب إلى القنطرة ، ينظران إليها متأملين ملاحظتها . وقد لحظت منهما ذلك وسمعت أصغر الاثنين . ذا الديباجة المشربة حمرة ، يقول لزميله — ما أجل هذه المرأة ، وما أقفئها !!

ولكن سرعان ما مرّ القارب واختفى تحت قنطرة رويال . هل يوجب هذا الازدراء أم السرور ؟ تحركت زوايا شفاتها وبدأت ابتسامه . . كانت وديعة ، وهياتها المترددة عذبة مطمئنة . رفعت ذراعيها الجميلين بدلال طالما أشقى رجال ومرت بأصابعها على جبهتها . ثم ، وقد اكتفت بما رآته أغلقت النافذة حينما كان الوقت ظهراً . في الساعة الثانية لم تكن قد دقت الجرس بعد . ومرت عشر دقائق أخرى فدهشت الخادم من أن أحداً لم ينادها وفتحت الباب وسألت عما إذا كانت السيدة ليست في حاجة إلى شيء . ما من أحد في الداخل ولكن أمامها شيء أسود معلق بين النافذة والمرآة . هرعت الفتاة تصيح في طلب النجدة .

كانت هيلين هاثيلان معلقة برباط الرقبة - رباط جور- التليذ إلى حيث تعلق المعاطف . وقد لفت منكبيها بذلك الوشا الذي أهدها لها رينيه في ميدون . أما ركبتيها فهما مشدودتا

بصلابة . ومس طرف أعقابها الأرض . وغطت وجهها
بنقاب رفعوه فكشف عن وجه منتفخ ، وتدلى لسانها من انفم
وبدا أسود اللون منتفخا .. لقد انتحرت هيلين هايلان لتخلص
من هذه الحياة التى تسومها العذاب . حياة مريرة لا طعم لها .
ولقد كانت تتعذب من ضميرها الذى يوخزها ويؤنبها على مسلكها ،
وكانت تتخيل نفسها مجرمة آثمة . ملطخة اليد بدماء زوجها . ثم أنها
من البداية لم تكن مرتاحة إلى هذا الزواج . لأنها تحب ، وتحب من ؟
تحب رينيه لونها الشاحب الجاف الذى لم يقل لها يوما أنه يحبها
ولم يبادلها عواطفها . أنها تعسة ، فى كل أطوار حياتها . لم تنأ
بحبها ولا بزواجها .. وهامى تنتحر ، فتخلص من هذه الحياة الثقيلة .
واختفى هذا الوجه النضير ، الذى عبس له الدهر .
وارتاحت تلك النفس المعذبة فلن تقلقها بعد ذكرى زوجها ،
ولن تضطرب لرؤية الحبيب . فقد آن لها أن تفارق الشجون
والآلام وأن تودع العالم هادئة مطمئنة .

وقد صرح ضابط الشرطة الذى نودى به :
لقد رأيت كثيرا سيدات منتحرات . ولكن هذه هى المرة
الأولى التى أرى فيها سيدة مشنوقة .

١٤

سمع لو نجمار نبأ تلك الفجيعة التي تفزع لها الصخور والرزية
التي لا تعوض وكم هلع لها قلبه وكيف لا يهلع ، وتلك امرأة
أحبها ورأى فيها مثله الأعلى ثم هو يفقدها اليوم فلا يراها ولما
يمض على اجتماعهما الأخير وقت كثير أحبها ولكن صدمه
المال فحطم قلبه وتركه كسيراً بائساً وهو لم يزل في المرحلة الأولى
من حبه ، ثم زال هذا الشبح الذي نغص عليه حياته ، وترملت
هيلين ، فكان يتعزى عما سلف برؤيتها والتحدث إليها . ولكنها
كانت تنألم ، فيزيد مظهرها الحزين من شجونه وآلامه . وأخيراً
هاهى تفارقه دون أن تترك له كلمة واحدة . فيا للبصية ، لقد
اندرأ القضاء دفعة واحدة على هذا الشاب ، وحكمت الطبيعة
عليه بأن يعيش حزينا بائساً كسير القلب ، بعد أن حكمت على
حبيته ومالكة فؤاده بأن تحيا حياة بائسة مريرة ، حكمت عليها
باليأس القاتل ، أفقدتها قلبها وأملها وسعادتها حتى فضلت
الانتحار ، فذهبت في ريعان الشباب وخلفت بائساً محزوناً ،
يقذف جمرات الإلحاح المستعرة ويقلب مقلته في حجاجه

كالخبتل المسوس . ليس له من الأحساس والشعور لا قليل ولا كثير . لم يظهر من الخلال الحسنة غير إقدامه وجده في التطيب فقد كان يعمل في تطيب داء الكلب . وزاد نفوره وشجاره مع أترابه وغلى صدره بمراجل الحقد نحو النساء . فترك ثياب الظرف والملاطفة وأقام وحيدا . وبلغ من جزعه وفروغ صبره أنه لم يمكنه أن يتناول غذاء واحدا في الملبن دون أن يتشاجر مع الخادم والعامل والفتاة الحاسبة . وفي مناقشة حادة مع رئيس المستشفى ، استقال من خدمة الجراحة الحربية . وفي يوم صحو جاء إلى والده ، في أردن بغير كتب ولا أردية . وأما بذقن ثلاثة أسابيع وهياة العبوس . كان مفتش الطرقات السابق ، شيخ صغير يعمل في قطع أشجاره ويعبئ أنبذته في زجاجات . يعهد منزله ، يشق الأخشاب ، يذهب ويؤوب وقد أولى أشياء الحياة اهتمامه العظيم . هز منكبيه حينما رأى ابنه يتمدد في الحديقة طوال يومه . وقد وضع غليونه في فمه وقبعته تغطي رأسه حتى الأنف . قال له يوما بعد الغذاء ، أنه يحس وربما في ذراعه . ولا يؤلمه هذا ولكنه يشعر بالتضخم ثم سأله عما يجب ان يفعله . فأجاب رينيه

— لا شيء —

ثم أدار عقبيه الى الرجل الطيب

كثيرا ما خاطر الشيخ ، ذى المعزقة فى يده ، قريبا من
كومة التبن حيث يتمرغ ابنه .. قال له مرة :

— إذا كنت مريضا ، فلتذهب لتنام فى مضجعتك . وإذا
كنت تريد ان تغامر فى الحياة مرة ثانية فأنتى مستعدان اساعدك
على مسلكك .

اعتاد رينيه ان يخرج بعد الغذاء . فيذهب قريبا الى حيث
واد عميق ضيق ، وشواطىء نهر صغير . كل شيء يبدو غنا تافها .
كان الله خاليا من الجمال والظرف . واقام بضعة اسابيع على
هذا الحال .

ذات يوم بينما كان يتشأب بيلادة على الشاطئ ، رأى
أطفالا يقذفون الحصى فى الماء . بحركات رشيقة خرقاء . وقد
كانت هاته المخلوقات الصغيرة ذات شعور صفراء . ووجوه قد
أشربت حمرة قانية وهى تضحك وتمرح ، يجعلون من الماء موجات
خفيفة . يضحكون وسط تلك المناظر الخشنة . طرأت فجأة على
لونجمار فكرة . ناداهم ، ولكنهم هربوا فتعلقوا بالأحجار الناتئة

فسقطوا إلى القاع الموحد . وغطسوا ولم يتقدموا . علق أحدهم بشق في صخرة فوق النهر ظنّها مخفية . وكم ارتعب حينما أتى إليه لونجمار وجذبه من جحره كالحية . لم تكن هياته شريرة حتى أن الولد لم يخافه . قال له :

— هل تريد أن تصنى إلى ، أيها الوحش الصغير ، إذا كنت تريد أن تربح بعض النقود فاحمل إلى بعض الضفادع أنك تعرف كيف تصيدها ، وأحضرهم إلى مسكني عند الأب لونجمار .

وإذا ما استحوذ على ضفادع ، قبع في غرفته التي امتلأت برائحة الأدوية والتبغ . وكان والده يراقب في سرور الضفادع المعلقة ، واضمر لولده أثناء عمله أحتراما : وعمل جهده على عدم إقلاقه حتى ليسير على أطراف أصابعه . وقد سأله يوما : ألا يمكن أن أساعدك في تحضير ضفادعك ؟ ألسنت في حاجة مثلا لأن أنحت لك القوالب ؟ يمكن أن أقوم بأعمال الطلاب . وصب الرمل الرفيع .

— تلتصق رمالا ناعمة فوق الأرض ! ولم هذا ؟

فشرح الأب ما كان يظنه وهو أن ابنه يحشى الضفادع

يُجعل منها مجموعات ذنية : قال :

— لقد رأيت في پاری ، في حوانيت الطيريين ، ضفادع
محضرة باتقان . وقد عملوا مناظر لعرا كها وجعلوا في يد كل
حساما صغيرا . ومناظر أخرى وهن يلعبن ويقفزون في الماء
الموضوع في زجاجات . تلك مهارة فائقة . لقد ظننت يا ولدي
أنك تعمل في شيء من ذلك .

وكم شعر بالخيبة حينما علم أن ابنه يعمل بعض تجارب . كان
هذا في نظره أعمالا خاصة بالطلبة . ومنذ ذلك طفح وجهه
بالآسى . وقد تناول ضفادع معلقة على النافذة وهو يحرك رأسه أسفا .
ذات صباح أخبره ابنه انه راحل . فكان شجار بين الاثنين
ومناقشات عنيفة انتهت بأن افترقا غاضبين

ولكن سريعا ما بكى الوالد الشيخ عندما عاد إلى منزله . أما
رينيه فإنه ما كاد يستلقى على المقعد في الدرجة الثالثة حتى اخذ
يحفف دمه .

في محطة ريم رأى شاين يلوح أنهما من موظفي المتاجر
دخلا عربته كان أولهما يقرأ في ألبتي جورنال . ويسمع ترابا
الأخبار الهامة .

— الازمة الوزاريه مستمرة . . . حدث انفجار مقلق فى
حى كيو . . . أنفذ حكم الأعدام فى المدعو جرول (چوست -
ديزيرى) الساعة السادسة من صباح اليوم . فى ميدان مارشى
بجرائنى . . .

سأله الآخر :

— ماذا فعل ؟

— لقد قتل شيخا ، واتهم بدس السم لأحد الانكليز
الأثرياء ولكن هذه الجريمة الثانية لم تثبت للقضاء . ألا تذكر
قضية جرول ؟ .
— كلا .

وبعد هنيهة من السكون . قال :

— هل هناك إيضاحات ؟

قرأ بصوت منخفض ! « منذ الرابعة صباحا : الآلة المهلكة . »

لم يصغ لونهجما للباقي . طوى القارىء صحيفته وقال :

— حتى الدقيقة الاخيرة أحتج بأنه لم يضرب المجنى عليه

قصد قتله . هذا سيان . أنه شرير شهير . . . والآن فسا كل
قطعة من الحلوى . . وأنت ؟ . . .

أقام لونيهار في پاری خاملا . وقد بقيت له بضع مئآت من
الفرنكات من خدمته في كوشين شين . فأضاعوا للتو . وكان
يستيقظ في الظهر ويذهب للجلوس على شاطئ . لكسمبرج بين
أزهار معدمة ، فقد انتهى فصل الربيع ، وكان يلقي برأسه بين
يديه وقتا طويلا حتى أن أصابعه قد تركت أثرا في وجنتيه .
وقد قضى أيام الشتاء في منتدى حيث يقيم منعزلا لا يقرأ
الاخبار ولا يلعب البليارد . رأى هناك ، في الخريف وجها
يعرفه هو نويلهاك ولد قروى غليظ . كان يساعد والده في
الزراعة في أوثرن . ثم اشترى عينا مهملة في بلدته حيث أخذ
يرغب المستحمين في مياهها . وقد أقبل على الاربعين ولا يزال
يافعا . قدم زجاجاته إلى لونيهار وأخذ يشرح له مشروعه .

عل بعد خمسين كيلومترا من كلير مونت ، على شاطئ
بحيرة ، وعلى قاعدة جبل من البازالت تقع المصححة . وكان
يسكن البلدة خمسة عشر من الماعز .

وقد ورث نويلهاك عن والده بعض المساكن الصغيرة التي
صارت فيما بعد أكواخا للأجانب . وأمام هذا البناء يقع فندق
قيصر الذي يتسع لثلاثين إلى أربعين سائحا . وهم يأملون في عمل

ملهى فى المستقبل وقد ابتدأ برأس مال صغير . ولكن من يعرف فى المستقبل ؟ واخيرا طلب إلى لونجمار أن يرافقه ليكون طبيب المصحة . وكان لونجمار شهيرا فى عالم الطب . وماضيه فى الخدمة العسكرية الطبية مجيد وقد عهد فيه أصدقاؤه أستاذا عظيما . أجاب :

— أن حماماتك محتبئة . لا يأتى إليها البتة إلا بعض الأوربيين المصابين بداء الخنازير . فأذا ذهبت إلى هناك فسأقيم الشتاء كالصيف .

وقد قبل دون معارضة المرتب الضئيل الذى عينه له نويلهاك . فى الغداة ذهب ليتجول فى پارى ليشترى قليلا من الثياب والآلات والكتب ، نحو الخامسة مساء . لما أن أنهى من شارع شامب - أليس ، رأى نفسه امام مثل جويجنول . وقد عقد جبل طويل إلى جذوع الأشجار كما تقفل الحلقة التى حجزت لجمهور النظارة . وفى الخلف جمهور الأطفال . لمح وسط النظارة شيئا فى ردنحوت باهت اللون ، يصوب نظره الحائر بين السماء والأرض . هذا هو المسيو فيلير دى سيساك الذى أثار رؤياه ذكريات لونجمار .

صاحبه مسيو فيليير وهو يبحث عن عبارة يقولها ولكنه
عجز عن ذلك . قال لونجمار بجنان وعطف :

— هلم ، سأدلك على عمل .

— هذا حسن . ليس عندى أعمال هذا المساء .

قال أنه يقطن شارع تروتو :

وقد جلسوا فى الظلام ، فى إحدى حانات مونمارتر .
وكانوا يتبادلون النظرات وهم مشدوهين لا يعرفون أهو يوم
أم مائة سنة لم يروا أنفسهم خلاله .

لم يتحدثوا عنها . ولكن كلا منهم يتخيلها قرية منه . قال
لونجمار وهو يكسر البندق أنه سيسافر
— سوف أدلك على عمل .

صدرت عينا الشيخ وصاح :

— أترك بارى ! ليس هذا بالمكان ! والأعمال ! لاهياة

إلا فى بارى .

فلم يستطع لونجمار ذى الأشجان والاحزان . أن يمنع
نفسه من الابتسام . هلم إذا ستصير هناك مفتشا ، مراقبا أو مديرا

رنت هاته العناوين فى رأس الشيخ الذى خلت يده من

العمل فتواعدا على الغداة . وقد حدث لونيهار نفسه :
— أنه أقوى منى . حتى ليبدو كأنه صهرى .

لم يكن فصل الحمامات سيئا بالنسبة لنويلهاك . فقد جاء
بعض الروسيين وعائلة من ليونى ليأخذوا المياه من مصحته .
أقام مسيو فيلير قريبا من الينبوع وتذوق الماء بقبالية . ولم
يعينه نويلهاك فى وظيفته حقا . وقد كان يدفع له من مرتب
لونيهار . لقد قال له الطبيب :

— دعه يظن أنك تعطيه مرتبا . ولا تعلمه أن هذه هى
نقودى التى يقبضها أما أنا فسادبر أمرى .
أخذ يمرض بعض الروسيين ودعى للتطبيب فى الجبل
المجاور .

رحل السياح كرحيل السنونو الواحد تلو الآخر . جاء الشتاء
وغطى الوادى بالسحب وقد انتشر الضباب حتى لتترامى لك
اشجار الشربين الهائلة كالحىالات . وقفل الأفق يحمر من الظلام
وفى المصححة كنت ترى الصور التاريخية الحمراء والصفراء ،
وقد تقشرت . وفى فندق قيصر ، فى الواجهة ، كان يرى مسيو

فيلير يلعب الدومينو مع صاحب الفندق ، في حين جلس لونيهار
يدخن غليونه ، وقد حك قبضته اليسرى بأبهامه الأيمن ثم حدث
نفسه بصوت منخفض الحى الشديدة - والألم الحاد فى السوداء ،
والسعال ثم الضيق الذى يعاينه ، والألم الكبير فى منكبه الأيمن.
لا ينقص شىء . أى حملة جميلة تلك التى انصبت على .
وللمرة الأولى منذ عام وأربعة شهور وستة أيام ، علت
ء حمة الانتسامة

استمراره

وقعت بعض غلطات مطبعية ولغوية نتركها لفطنة القارىء.
وقد ذكر فى الصحيفة الأولى أن حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
وهذا خطأ

